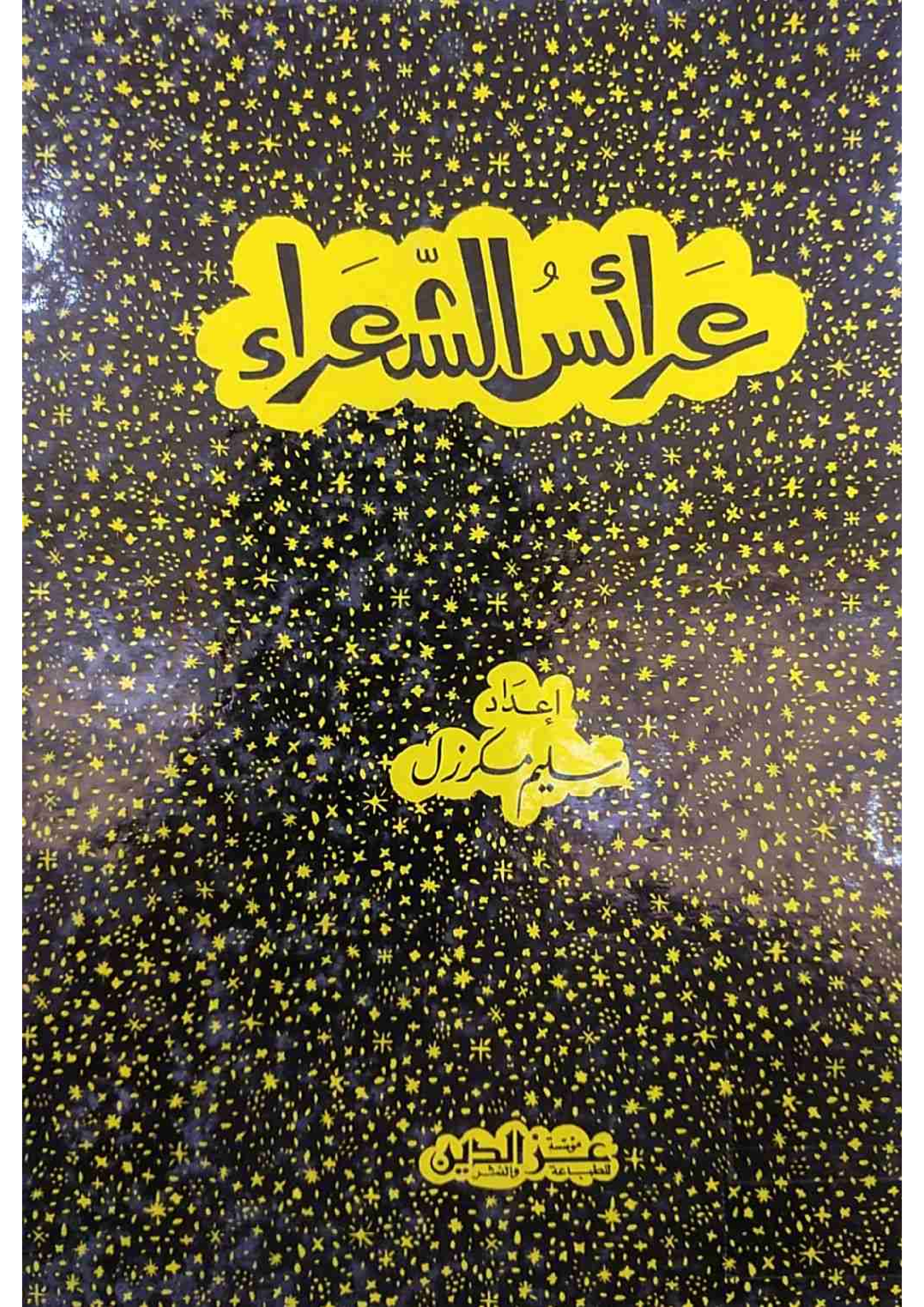


عرائس الشعراء
إعداد
سليم مكرزل
مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر

عرائس الشعراء

إعداد
سليم مكرزل

مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر

الطبعة الثانية

١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥ م

مؤسسة عز الدين
للطباعة والنشر

هاتف: ٨٣١٦٤٠ - ٢٧٥٥٣٢ - ٢٧٥٥٦٣ - ٢٧٥٨٦٧ - ص.ب: ١٣/٥٢٥١ بيروت - لبنان

الفهرس

مَن هي عروس الشِعر؟

قال الأقدمون إنّ عروسَ الشعر هي جنّيةٌ رُوحُهَا خلاّب وقلبها جذّاب ووشاحها على جنّات أطياب. تُوحي لشاعرها ما ينظمه من روائع.

وقيل: بل هي جمالات مُتعددّة، سرْبٌ من عذارى الغاب الخفيّات، يُواكبنَ الشاعر في غدواته وعشاياه، لا يُوشّح أجسادهنّ سوى غدائرهن، يَرففْنَ حوله في شتى حركاته وسكناته، نافثَاتٍ لروحه غرائبَ الأنغام والأخيلة والهمسات.

بل قيل: هيِ فينوس، تختاره منذ طفولته، فتنحني مُقبّلةً ثغره مُشِيعةً في قلبه خمرةَ الغيبِ وأسرارَ الآلهة.

وعروس الشعر في العهود الأدبية الأولى، هي تلك الملهمة الصعبة المنال، لشعراء مُعذّبين، عاشوا في ظلّ عادات وتقاليد، فتعذّبوا أيمّا عذاب، وعانوا مرارة العيش على شظفه وجفافه، لكنهم تركوا لنا أروعَ الشعر، وأقسى الذكريات، وأغربَ القصص العاطفية.

فاطمة وامرؤ القيس

ولد امرؤ القيس في نجد حوالى العام ٥٠٠ م. وعاش عيشةَ أبناء الملوك، فوالده حُجْر الكِنْديّ، ملك بني أَسَد وغَطَفَان.

انجرف الشاعر الجاهلي باكراً في حياة الترف واللهو. وجعل يتهتّك في شعره ويفحش في سرْدِ قصصه الغرامية، فردعه أبوه عن قول الشعر (لأنه ليس من عادة الملوك). فلم يرتدع، فطرده.

* * *

كان امرؤ القيس يحبُّ ابنةَ عمّه عُنَيْزَة أو فاطمة (كما لقّبها) وفي «دارة جُلجُل» كان له (يومٌ صالح) إذ رأى حبيبته هناك مع سرب من العذارى يتنزّهن قرب غدير، فجلس معهنّ طوال النهار وذبح ناقته فأكلن من لحمها، ولدى عودتهنّ حملت كلٌّ واحدةٍ على راحلتها شيئاً من أمتعة امرىء القيس، أمّا هو ـ ذابح ناقته ـ فأشفقتْ عليه ابنةُ عمّه وأَردفَتْهُ وراءَها على راحلتها.

هذه القصة، عرضها الشاعر في معلقته التي بلغت أَبياتها الثمانين بيتاً.

* * *

ما أجملَ الملكَ الضلّيلَ واقفاً يُلقي على الجاهليين المُحتشدين في

سوق عُكاظ، أوَّلَ مُعلّقةٍ، أَو أَوَّلَ قصيدةٍ كُتِبَتْ بماء الذهب وعُلِّقَتْ على أستار الكعبة!

وشدَّ ما كانت دهشةُ ذلك الجمهور لسماع ذلك الملك الكِنْديّ يُلقي بصوت فيه الحنين والذكريات:

*** قِفَا نَبْكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ ***
*** بسقطِ اللّوى بين الدَخُولِ فَحَوْمَلِ ***

قد تتغيرّ أَسماءُ الأَماكن، لكنّ امرأَ القيس وضع لسقط اللوى تحديداً جغرافيّاً حتى يعجز كرور الدهور عن طمْسِ ذكرى ذلك المكان.

ويتابع الشاعر واصفاً اليوم الصالح في «دارة جُلجُل»:

*** أَلا رُبَّ يومٍ لك منهنّ صالحٍ ***
*** ولا سيّما يومٌ بدارةِ جُلْجُلِ ***

*** ويومَ عقرتُ للعذارى مطيّتي ***
*** فيا عَجَباً من كورها المتحمّلِ ***

*** فظلَّ العذارى يرتمينَ بلحمها ***
*** وشحمٍ كهُدَّابَ الدمقْسِ المفتّلِ ***

*** ويوم دخلتُ الخِدْرَ خدرَ عُنيزةٍ ***
*** فقالت: لَكَ الويلاتُ إنكَ مُرجِلي ***

*** تقولُ وقد مال الغبيطُ بنا معاً ***
*** عَقَرْتَ بعيري يا امرأ القيسِ فانزلِ ***

ومأأمدى ما كان فَرَحُ عُنيزة أو فاطمة ودموعها، حين سمعته في

ذلكَ الحَشْدِ يتنَّهدُ قائلاً لها:

** أَفَاطِمَ مهلاً بعضَ هذا التدلّلِ **
** وإِنْ كنتِ قد أَزمعتِ صَرمي فأجملي **

** وإنْ تَكُ قد ساءتك مني خليقةٌ **
** فسلِّي ثيابي عن ثيابكِ تَنْسُلِ **

** أغرّكِ منّي أن حُبَّكِ قاتلي **
** وأَنكِ مهما تأمري القلبَ يفعلِ **

** تسلّتْ عماياتُ الرجالِ عنِ الهوى **
** وليس فؤادي عن هواكِ بِمُنْسَلِ. **

يا لدموع المرأة:

** وما ذرفتْ عيناكِ إلاّ لتضربي **
** بِسَهْمَيْكِ في أعشار قلبٍ مُقَتَّلِ. **

***

إلى أن يقول:

** وبيضة خِدْرٍ لا يُرام خباؤها **
** تمتعّتُ من لهوٍ بها غير مُعجَلِ **

** تجاوزتُ أحراساً لديها ومعشَراً **
** عليَّ حِرَاصاً لو يُسرّون مقتلي **

** فقالت: يمينُ الله ما لكَ حيلةٌ **
** وماإنْ أَرى عنك العماية تنجلي. **

ماريّة وامرؤ القيس

*** بكى صاحبي لّما رأى الدرب دُونَنَا ***
*** وأَيْقَنَ أنَّا لاحقانِ بقصيرا ***

*** فقلتُ له: لا تبكِ عينُكَ إنما ***
*** نُحاوِلُ مُلْكاً أو نموت فنُعذرا ***

❊ ❊ ❊

بيتان جميلان قالهما الشاعر الضليّل، وهو في طريقه إلى القسطنطينية ـ في طريق خطأ قديم ـ مستنصراً قيصر الروم على قبائل ثارت بأبيه الملك وقتلته. مع أن امرأ القيس كان قد ثأر لأبيه من تلك القبائل، وأنه زار القسطنطينية من قبل.

وكان الشاعر يومَ مقتل حُجْرٍ والده في ديار الشام يشرب الخمر مع بعض ندمائه، بعد أن غادر أباه الملك الكنديّ الذي أَبى على ابنه شرب الخمر، والتغزّل بشعره.

والمعروف أن لامرىء القيس قصائدَ شهيرةً في الغزل، تميّزت بالسرد القصصي والإباحية.

والمعروف أيضاً أن امرأ القيس صاحبُ أول مُعلّقة كُتِبَتْ بماء الذهب وعُلِقّت على أستار الكعبة، وقد ألقاها الشاعر في سوق عُكاظ وسط جماهير غفيرة من الناس، وهو أول مَن وقف واستوقف وبكى

واستبكى، في مُعلّقته تلك والتي مطلعها:

*** قفا نبكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ ***
*** بسقط اللوى بين الدخول فحوملِ ***

وعندما وصل إلى امرىء القيس نبأُ مقتلِ أبيه، قال متمثّلاً بقول خاله المهلهل:

«اليوم خمر وغداً أمر!»

ولّما كان من غد، قفل الشاعر راجعاً وأخذ يستنجد القبائل ليثأر لمقتل والده، ثم قصد قيصر الروم يوستنيانوس في القسطنطينية.

لقي ابن حجر الكندي في عاصمة بيزنطية احتفاء ووعداً، ولا سيما لدى ابنة القيصر ماريّة التي شغفها الشاعرُ العربيّ، كما شغفته هي.

وبقي في ضيافة القيصر ما يُمكن أن يبقى ضيف كريم. وقضى في نزهاته وماريّة، سُويعاتٍ طيّباتٍ كان لها أثر حتى في معلّقته.. أَثر السجنجل، المرآة، التي كثيراً ما تردّدت على لسانِ ماريّة، أو قبل ماريّة من جميلات بيزنطية، وارتسمت فيها وجوههن المشرقات، فقال الشاعر مفتخراً لدى فاطمة السمراء:

*** مهفهفةٌ بيضاءُ غيرُ مَفَاضَةٍ ***
*** ترائبها مصقولةٌ كالسجنجلِ ***

ولعلّ أمرأ القيس، الجاهلّي، أولُ مَنِ اجْتَرَأَ وأَدخل كلمةً غريبةً إلى اللغةِ العربية!

وبعد، فقد رُوِيَ أن غيوراً في البلاط، ألهبت قلبَهُ صداقةُ الشاعر وماريّة، فدسّ للضيف في الحلل الفاخرة المهداة اليه من القيصر، نوعاً

من السُمّ طَلَى به حواشيها، فارتدى الشاعر العربيّ بعضاً من تلك الحلل، وودّع يوستنيانوس، بعد أن تفطرّ قلبهُ ليلةَ وداع ماريّة، مُدِيراً وجهه شطرَ نجد.

وبينما كان امرؤ القيس في طريق العودة، إذ جعل يُحس بقروحٍ تبرزُ من حيث مسَّ الثوبُ جسدَهُ، وبقواهُ تتلاشى.. فظنهّا، بدأةَ ذي بدء، حالةً من حالاتِ الفراق... لكنّه ما لبث أن شعر بانهيار يجتاحه، فنظر إلى جبل على مقربة من أنقره، يُدعى جبل عسيب، وهو غير عسيب نجد، فرأى فُوَيْقَ سفحه قبراً جديداً جميلاً، فاستفسر عنه فقيل له: هو قبرُ حسناء غريبة الدار أَدركتها المنيّة بذلك المكان، وهي في ريعان العمر. فالتفتَ الشاعر إلى القبر، وقال هذين البيتين اللذين لم يقلْ بعدَ ذلك غيرهما:

⁂ أَيَـا جـارتـا إنّ المـزارَ قـريـبُ ⁂
⁂ وإني مُـقِيـمٌ مـا أَقـام عـسيـبُ ⁂
⁂ أيَـا جـارتـا إنَّـا غـريبـانِ هَهُنَـا ⁂
⁂ وكـلُّ غـريبٍ للغـريـبِ نسيبُ ⁂

ولفظ الشاعر الضليلُ أنفاسه الأخيرة، وهو لّما يبلغ الأربعين من عمره.

ويُقال ان يوستنيانـوس حزن عليه حُزناً شديداً، وأقام له تمثالاً شاهده المأمون عندما غزا تلك الديار..

عبلة وعنترة

وُلِدَ عنترة بن شدّاد العبسيّ، في نجد، العام ٦١٥م. ينتهي نَسَبُهُ الى مُضَر ويُكنى بأبي الْمُغَلِّس لغاراته في الغلس، ويُلقّب بعنترة الفوارس لشجاعته، وعنترة الفلحاء لانشقاق شفته السفلى.

أُمّه زُبيبة، سباها أبوه في احدى غزواته، وكانت حبشيّة سوداء.

لم يعترفْ به أبوه في أول الأمر، لكنّه ادّعاه يوم أَغار بعضُ أحياء العرب على بني عبس فقال له أبوه:

ـ كرّ، يا عنترة.

قال عنترة:

ـ العبد لا يُحسن الكرّ، بل يُحسن الحِلابَ والصرّ.

قال أبوه:

ـ كرّ وأنت حُرّ.

فكرَّ عنترة وأبلى بلاء حسناً، فادّعاه أبوه وألحقه بنسبه.

* * *

كان عنترة أشدّ أهل زمانه وأَجرأَهم فؤاداً، وأَسخاهم يداً، أعفهم خلقاً ولسانا، فهو القائل:

وأغضُّ طَرْفي ما بدتْ لي جارتي
حتى يُواري جارتي مأواها.

ولّما أُنْشِدَ النبيُّ قوله:

«ولقد أَبيتُ على الطَوى وأَظَلُّهُ
حتى أنال بهِ كريمَ المأكلِ.»

قال:

«ما وُصِفَ لي أعرابيٌّ قطُّ فأحببتُ أَن أَراهُ، إلّا عنترة».

* * *

أَحبَّ عنترة ابنة عمّه عبلة، فمانع أبوها مالك في تزويجه إيّاها، وراح الشاعر المتيّم يتنهّد الشعر. هو لا يريد سواها، وهي عالمة بذاك:

«ولئن سألتَ بذاك عبلةَ خَبَّرَتْ
أنْ لا أُريدُ من النساءِ سواها.»

وعندما أُبعِدَ عنها، قال:

أُعاتبُ دهراً لا يَلِين لناصحِ
وأُخفي الجَوى في القلبِ والدمعُ فاضحي

وقد أَبعدوني عن حبيبٍ أُحِبُّهُ
فأصبحتُ في قفرٍ، عن الأُنسِ نازحِ

* * *

كان عنترة إذا تغزّل تألم وشكا، وكان تاعساً في حبّه شقياً، يطمع في عبلة فيُبعده عنها والدها ويحُاول استرضاءه فلا يفلح. وما أشدَّ ألَمَهُ ويَأْسَهُ عندما يعرف أن ابنة عمّهِ في أرض أعدائه، وينظر الى نفسه، فيرى أنه وحيدٌ تخلى قومُهُ عنه وجاروا عليه، ويتملكه اليأسُ فيهون عليه بَذْلُ نفسه.

قال مُستهلاً معلقته:

** يا دارَ عبلةَ بالجواءِ تكلّمي **
** وعِمي صباحاً دارَ عبلةَ واسلَمي **

** دارٌ لآنسةٍ غضيضٍ طَرْفُهَا **
** طَوعِ العناقِ لذيذةِ المُتَبَسّمِ **

** وتحلُّ عبلةُ بالجواءِ، وأَهلنا **
** بالحَزْنِ فالصمَّانِ فالمُتَثَلّمِ **

** حُيّيتَ من طَلَلٍ تَقَادَمَ عَهدُهُ **
** أَقْوى وأَقفرَ، بعدَ أُمّ الهَيْثَمِ **

** حلّتْ بأرضِ الزائرين، فأصبحتْ **
** عِسْراً عليَّ طلابُكِ، ابنةَ محرَمِ **

** عُلقتُهَا عَرَضاً، وأَقتُلُ قومَهَا **
** زعمًا، لَعَمْرُ أَبيكَ، ليس بمَزْعَمِ **

** ولقد نزلتِ، فلا تظنّي غيرَهُ **
** منّي بمنزلةِ المُحبّ المُكْرَمِ **

** إنْ كنتِ أزمعتِ الفراقَ، فإنما **
** زُمَّتْ ركابُكُمُ بليلٍ مُظْلِمِ **

** مـــا راعــني إلاَّ حمــولَــةُ أَهــلِهَــا
** وَسطَ الديارِ، تسفُّ حَبَّ الخمخمِ . **

* * *

ويقول عنترة في داليّته الشهيرة:

** بــين العقيق وبـــين بُـــرقــةِ ثَــهْمَــدِ
** طَـلَلٌ لعــبلةَ مُـستـهِــلُّ الَمـعــهــدِ **

** يـــا مســـرحَ الآرامِ في وادي الِحمىَ
** هلَ فيك ذو شَجَنٍ يروحُ ويغتدي؟ **

** في أيمـــنِ الـعَــلَمَـين دَرْسُ مـعـــالم
** أُوهـي بهــا جَلَدِي، وبَانَ تَجَلُّدِي **

** من كـــلِّ فـــاتنـــةٍ تَـلفَّتَ جِيــدُهَـــا
** مَـرَحـاً، كســالفـةِ الـغـزالِ الأَغيـدِ **

** يـا عبـلَ كم يُشجى فؤادي بـالنَّوى
** وَيَرُوعُني صوتُ الغُـرَابِ الأَسـوِدِ **

** كيف السلوُّ؟ ومـــا سمعـتُ حمــائـمًا
** يَـنْــدُبْنَ إلاَّ كـنـتُ أَوَّلَ مُـنْـشِـــدِ **

** ولقـد حبستُ الدمـعَ لا بُخـلاً بـه،
** يومَ الودَاعِ، على رُسُومِ الَمعْهَـدِ. **

** وسألتُ طيرَ الدَّوحِ : «كم مثلي شَجَا
** بــأَنينـهِ، وحـنـينـهِ الُمـتــرِدّدِ»؟ **

⁂ نَـاديـتُـهُ ومـدامـعـي مُـنهـلَّةٌ: ⁂
⁂ «أينَ الخَلِيُّ منَ الشجيِّ المُكْمَدِ ⁂

⁂ لــو كنتَ مِثْـلي مـا لَبِثتَ مُلَوَّنـاً، ⁂
⁂ وهتفتَ في غصنِ النَّقَـا المُتـأوِّدِ» ⁂

⁂ رَفعُـوا القِبَـابَ عـلى وُجـوهٍ أشـرقتْ ⁂
⁂ فيهـا، فغيَّبتِ السُّهَى في الفَـرْقَـدِ ⁂

⁂ واستـوقفـوا مـاءَ العُيـونِ، بـأَعيُنٍ ⁂
⁂ مكحـولـةٍ بـالسِحْـرِ، لا بـالإِثمِـدِ ⁂

⁂ قـالوا: «اللقـاءُ غداً بِمُنْعَـرِجِ اللّوىَ» ⁂
⁂ وَاطـولَ شَـوقِ المُستهـامِ الى غـدِ ⁂

⁂ وتخـالُ أنـفـاسـي، إذا ردّدتهُـا ⁂
⁂ بـين الطُّلُولِ، محَتْ نقُوشَ المِبْرَدِ. ⁂

⁂ ⁂ ⁂

وتُرافق عبلةُ عنترةَ في شعره الحماسيّ أيضاً وفي فخره، فإنما هو يفتخر ويُغامر من أجلها:

⁂ إنْ تُغْـدِفِي دُوني القِنـاعَ، فـإنني ⁂
⁂ طَبٌّ بـأخْـذِ الفـارسِ المُستـلئمِ ⁂

⁂ أثـني عـليَّ بمـا علمـتِ، فـإنـني ⁂
⁂ سَـمْـحٌ مُخَـالقتي، إذا لم أُظْـلَمِ ⁂

⁂ ⁂ ⁂

⁂ هلاَّ سألتِ الخيلَ يا ابنةَ مالكٍ ⁂
⁂ إنْ كنتِ جاهلةً بما لم تعلمي ⁂

⁂ يُخْبِرْكِ مَن شهدَ الوقيعةَ أنني ⁂
⁂ أغشى الوغى، وأَعِفُّ عند المَغْنَمِ ⁂

* * *

⁂ فوددتُ تقبيلَ السُيوفِ لأنها ⁂
⁂ لَمعتْ كبارقِ ثغرِكِ المُتبسِّمِ. ⁂

* * *

وَجَدَّ عنترةُ الفوارس في طلب المعالي، ليمحو ببيضِ فِعَالِهِ سَوادَ لونِه، فَغَامَرَ لأجلها، ولاقى أشدّ الأهوال حتى بلغ أُمنيته، فألحقه أبوه بِنَسَبِهِ وزَوّجَهُ عمُّهُ ابنَتَهُ عبلة.

عبدة وبشّار

كان بشار بن بُرد عظيم الخلْقِ، مجدوراً طويلا، جاحظ الحدقتين، وكان أقبح الناس عمىً، وأفظعهم منظراً، قالت له امرأته ذات يوم:

ـ يا أبا مُعَاذ، ما أدري لِمَ يهابك الناس مع قبح وجهك.

فأجابها:

ـ ليس من حسنه يهُاب الأسد!

وكان بشار يُلقّب المرعث. قيل وانما سمي بذلك لقوله:

** قال ريمٌ مُرَعَّثُ **
** ساحر الطرفِ والنَظَرْ **

** لستَ والله نائلي **
** قلتُ او يغلب القدرْ **

** أنتَ إنْ رُمتَ وَصْلنا **
** فانجُ هل تُدرِكُ القمرْ؟ **

قيل لبشار:

بينما تقول شعراً تُثير به العقول والألباب مثل قولك:

إذا ما غضبنا غضبةً مُضَريَّةً
هَتَكْنَا حجابَ الشَمسِ أو تمطرُ الدُمَا

إذا ما أَعرنا سيّداً من قبيلةٍ
ذرى مِنبرٍ صلىّ علينا وسلَّما...

تقول يا أبا معاذ:

ربابةُ ربّةُ البيتِ
تصبُّ الخلَّ في الزيتِ

لها عشرُ دجاجاتٍ
وديكٌ حَسَنُ الصوتِ

فأجاب بشّار:

- أجل، ولكن لكلّ شيء وجهٌ ومَوضِع. فالقول الأول جِدٌّ، وهذا قلتُهُ في ربابة جاريتي، وأنا لا آكل البيض من السوق، وربابة لها عشر دجاجات وديك، وهي تجمع لي البيض، فهذا عندها من قولي أحسنُ من: «قفا نبكِ من ذكرى حبيب ومنزلِ» عندك أنت...

* * *

قال بشّار:

يُزهّدني في حُبّ عبدةَ مَعشَرٌ
قلوبُهُمُ فيها مخالفةٌ قلبي

فقلتُ دَعُوا قلبي وما اختار وارتضى
فبالقلب لا بالعينِ يُبصر ذو الحُبّ

فما تُبصر العينانِ في مَوضِع الهوى
ولا تسمعُ الأذْنانِ إلاّ من القلبِ

وله في عبدة كذلك:

ألا طرد الهوى عنّي رقادي *** فحسبي ما لقيتُ من السُّهَادِ

لعبدةَ إن عبدةَ تيّمتني *** وحلّتْ من فؤادي في السَوادِ

* * *

يقول بشار في قصة معرفته لعبدة:

كان بعض النساء يحضرن مجلسي، إذ سمعت كلامَ عبدة فعشقتها، فدعوت غُلامي وقلت له:

إني قد عُلّقتُ امرأةً، فاذا تكلّمتْ عرّفتك، وانظرْ مَن هي فاعرفها، فاذا انقضى المجلس وانصرف أهله فاتبعها وكلّمها وأعلمها أنني محبٌّ لها، وأَنشِدْها هذه الأبيات، وعرفّها أنني قلتها فيها:

قالوا بِمَن لا ترى تَهذي فقلتُ لهم *** الأُذْنُ كالعين تُوفي القلبَ ما كانا

ما كنتُ أوّلَ مشغوفٍ بجاريةٍ *** يلقى بلُقيانها رَوْحاً ورَيحانا

يا قومُ أُذني لبعضِ الحيّ عاشقةٌ *** والأُذن تعشق قبلَ العينِ أحيانا.

* * *

ومن جميل شعر بشار بن برد في عروس شعره عبدة، هذه الأبيات.

*** لم يَطُلْ لـيـلي ولـكـنْ لم أَنَـمْ ***
*** ونـفـى عـنيّ الـكـرى طيـفُ أَلَـمّ ***

*** رَوّحـي يـا عـبـدَ عـنيّ واعـلمـي ***
*** أنـني يـا عـبـدَ مـن لحـمٍ وَدَمْ ***

*** وإذا قـلـتُ لهـا جُـودي لـنـا ***
*** خـرجتْ بـالصمتِ عن لا وَنَعمْ ***

*** إنَّ في بُـرديَّ جـسـمًا نـاحـلاً ***
*** لـو تـوكَّـأتِ عـليـه لانهـدمْ ***

*** خَـتَـمَ الحُـبُّ لهـا في عُـنُـقـي ***
*** مَوضِعَ الخَـاتَمِ من أهل الـذمم. ***

بثينه وجميل

وُلد جميل بن معمر العُذْرِيّ العام ٧٠١م. واشتهر بحبّه لابنة عمّه بثينة، فعُرِفَ بجميل بُثينة.

كاناَ يُقيمان في وادي القُرى، وذات يومٍ ذهب جميل يرعى جماله الصغيرة على سفح وادي بغيض وهو بعدُ ولد، واذا ببنيّة ترشق الجمال بالحصى فغضب جميل وسبّها... فأعادت له الكيلَ كيلين.

وجاء الليل، ورنّة صوتها، على الرغم ممّا فيها من سباب، ملأت قلب الشاعر ودُجاه عذوبةً وأحلاماً، واستعذبتِ البُنَيَّةُ بثينة تلك النبرات في صوت شاتمها. فسهرتْ وعلى ثغرها بسمةُ حيرى، وفي صدرها قلبٌ كأنَّ دقّاته قد تغيّرتْ.

وهكذا يكون الحبُّ أحياناً زهرةً نَبَتَتْ في خلاف... وذكّرها جميل ذاتَ يوم قائلاً:

** وأَوَّلُ ما قاد المودّة بيننا **
** بوادي بَغيضٍ يا بُثَينَ سِبَابُ **
** فقلنا لها قولاً فجاءَت بمثلِهِ **
** لكلِّ كلامٍ يا بثينَ جوابُ. **

* * *

وقد يفترق الحبيبان لحين من حياتهما الدنيا، فيفرح الواشون

والحاسدون، فتغمر الكآبة قلب الشاعر الوفيّ ويشكو ويتذكّر ويتنّهد.

*** لقد فَرِحَ الواشون أَن صَـرَمتْ حبلي ***
*** بُثَيْنَةُ أَو أَبدتْ لنـا جانبَ البُخْـلِ ***

*** يقــولـون مهــلاً، يـا جميــلُ، وإنني ***
*** لأُقْسِمُ مـا لي عن بثينةَ من مَهْـلِ ***

*** أَحِـلمًا؟ فقبــل اليــوم كــان أَوانُــهُ ***
*** أَمَ اخشى؟ فقبل اليوم أُوعدْتُ بالقتلِ ***

*** اذا مـا تـراجعنـا الـذي كــان بيننـا ***
*** جرى الدمعُ من عينَي بثينةَ بالكُحْلِ ***

*** ولـو تـركتْ عقـلي معي مـا طلبتُهَــا ***
*** ولكنْ طِلاَبِيهَا لِمـا فاتَ من عقـلي ***

*** فيا وَيْحَ نفسي حسبُ نفسي الذي بها ***
*** ويا ويحَ أهلي، ما أُصِيبَ به أَهلي ***

*** أَجدَّكَ لا أَلقى بثينة مرّةً من الدهـر ***
*** إلاَّ خــائـفــاً أَو عــلى رحْــلِ ***

*** خليــليَّ فيــما عشتــما هــل رأيتــما ***
*** قتيـلاً بكى من حُبّ قـاتلهِ قبــلي ***

* * *

*** أَبيتُ مــعَ الهــلاّكِ ضيفــاً لأهـلهــا ***
*** وأهـلي كرامٌ مُـوسِعُونَ ذوو فَضْـلِ ***

⁂ ألا أيهّا البيتُ الذي حِيْلَ دونه ⁂
⁂ بنا أنتَ من بيتٍ وأَهلُكَ من أَهلِ ⁂

⁂ كلانا بكى أوْ كاد يبكي صبابةً ⁂
⁂ الى إلفهِ واستعجلتْ عَبرةً قبلي ⁂

* * *

⁂ نأيتُ فلم يحُدِثْ ليَ النأيُ سلوةً ⁂
⁂ ولم أُلفِ طولَ النأيِ عن خُلّةٍ يُسْلِي. ⁂

* * *

ونصح لجميل أصدقاؤه بغيبةٍ قد يُصيبُ فيها بعضَ الثروة، فقال وهو يُزمع السفر الى مصر:

⁂ أَلا ليتَ ريعانَ الشبابِ جديدُ ⁂
⁂ ودهراً تَولى يا بُثَيْنَ يعودُ ⁂

⁂ فَنَغْنى كما كنّا نكون، وأَنتُمُ ⁂
⁂ قريبٌ، وإذ ما تَبْذُلِيَن زهيدُ ⁂

⁂ وما أَنسَ مِ الأشياء لا أنسَ قولَهَا ⁂
⁂ وقد قُرّبَتْ نِضْوِي: «أَمصرَ تُرِيدُ؟» ⁂

⁂ ولا قَوْلَهَا: «لولا العيونُ التي ترى ⁂
⁂ أَتيتُكَ، فاعذرني، فَدَتْكَ جدودُ» ⁂

* * *

*** يمـوتُ الهـوى منيّ إذا مـا لقيتُهَـا ***
*** ويحيـا إذا فـارقتهـا فيـعـودُ ***

*** يقـولـون جـاهـدْ يـا جميـلُ بغـزوةٍ ***
*** وأيَّ جـهـادٍ غَـيـرَهُـنَّ أُرِيـدُ ***

*** لـكـلِّ حـديثٍ بيـنهـنَّ بشـاشـةٌ ***
*** وكـلُّ قـتيـلٍ بيـنهـنَّ شـهيـدُ ***

* * *

وما أَلطف وأَبرأ ما يرضى به جميل من بثينة:

*** وإني لأَرضـى من بُـثيـنـةَ بـالـذي ***
*** لوَ ابصَرَهُ الـواشي لَقَرَّتْ بَـلابِلُهْ. ***

* * *

وجميل الفقير، ابن البادية، الذائب إخلاصاً في حبّه الوحيد، ينسى دنياه، وقد لا يذكر منها إلاّ وجه بثينة الجميل العفيف، ولا يعدّ اليوم من حياته إنْ لم يرَ فيه ذلك المحيَّا البهي:

*** إني لأحـفظُ غَـيْـبَكُـمْ ويَـسـرّني ***
*** إذْ تُـذْكرينَ بصـالحٍ أَن تُـذْكـري ***

*** ويكـون يـومٌ لا أَرى لـك مُـرسـلاً ***
*** أَو نلتقي فيـه عـلَيَّ كـأَشـهُـرِ ***

*** يهـواكِ مـا عشتُ الفؤادُ، وإنْ أَمُتْ ***
*** يَتْبَعْ صداكِ صَدَاكِ بيَن الأَقْبُـرِ . ***

* * *

وذات يوم، بينما كانت بثينة واحدى صديقاتها في وادي القرى، والحديث يدور على جميل، وآخر ما وصل إليهما من قصائده، وهي الأبيات التي تفيض وفاءً واخلاصاً:

** فلربَّ عـارضـةٍ علينـا وَصْلَهـا **
** بـالجِـدِّ تخـلطه بقـولِ الهـازلِ **

** صـادتْ فؤادي، يـا بثـينَ حبـالكُم **
** يـومُ الحَجُونِ وأخـطأتـك حبـائـلي **

** حَـاوَلْنَنِي لأبـتّ حبـلَ وصـالـكم **
** منيّ، ولستُ وإنْ جَهـدْنَ بفـاعـلِ **

** يَعْضَضْنَ مـن غيظٍ عـليّ أنـامـلاً **
** ووددتُ لـو يعضضنَ صُمَّ جنـادلِ **

بينما كانت بثينة تُردّد هذه الأبيات وصديقتها... إذا بصوتٍ كئيبِ الهمسات ينسربُ بين أشجار النخيل، وتَردَّدُ أصداؤه في مُنحنياتِ الوادي من بعيد:

** ولقـد أجرّ الـذيـلَ في وادي القـرى **
** نـشـوانَ بـين مـزارعٍ ونخيـلِ **

فتقول بثينة:

- يا ويلتاه! ما هذا الصوت؟ إنه يحمل لي نبأً جللاً... أُحِسُّ قلبي يقف عن الحركة!

** صـدع النعيُّ ومـا كَنىَ بـجميـل **
** وثـوى بمصـرَ ثـواءَ غيرِ قفـولِ **

ـ رِفْقاً بقلبي، يا صاحب الصوت، يكفيه ما يذوب ويحترق مَن أنت وما وراءك؟

*** قُومي بثينــةُ فــانــدبي بعــويــل ***
*** وابكي خليـلَكِ دونَ كـلِّ خليـلِ ***

وتقول بثينة وهي تسقط على الأرض:

وَا جميلاه!

ويقول الرجل لصديقتها:

أسعفيها بالماء يا أُخيّة... مسكين قلبُكِ، يا بثينة، مات شاعره، مات جميل، أرسلني اليها وهو بين أنفاسه الأخيرة لأفعلَ ما فعلتُ، لِئلّا يقتلها وقْعُ نعيه المفاجىء، وهذا آخر ما تنّهد لها من شِعر، وهذه حُلَّتُهُ ذاتها، رحماتُ الله عليك يا جميل، يا قُمْرِيَّ البوادي والحواضر، لقد تعطّلتْ أَطيبُ نغمةٍ في الدنيا.

وتعودُ بثينةُ الى وَعْيهَا فتتنّهد قائلةً.

*** وإنّ سُلُوّي عن جميـلٍ لَسَـاعَـةٌ ***
*** منَ الدهرِ ما حانتْ ولا حانَ حِينهَا ***

*** سـواءٌ علينـا يـا جميـلُ بنُ مَعمَـرٍ ***
*** إذا متَّ بـأْسـاءُ الحيـاةِ وَلِيْنهُـا. ***

زينب وعمر

عمر بن أبي ربيعة، قُرَشِيٌّ مخزوميّ، ابن أسرة غنيّة. شاعر أمويّ عاش في القرن السابع ميلادي، وأدرك أوائل القرن الثامن. يُكنى أبا الخطّاب. من ألقابه: ذو الثنيتّين. هو في تلك المرحلة، حامل لواء الغزل الأباحي، مُتنقّلاً بعاطفته وشِعره المَرِحِ من وجه حسناء الى وجه حسناء: عرائس شعره كثيرات، وله مع كل منهن حوادث طريفة:

بعد قوله بفاطمة بنت عبد الملك، يوم رجوعها من الحجّ: «ليتني متُّ قبل يومِ الرحيل»، ها هو يقول بزينب بنت موسى، وقد وصفها له ابن أبي عَتِيق، فشغل قلبه، ذلك القلب المخلص للجمال أكثر منه للجميلات:

يا خليليَّ من مَلامٍ دعاني ... وأَلِمّا الغداةَ بالأظعانِ

لا تلوما في آلِ زينبَ إنّ القلبَ رهْنٌ بآلِ زينبَ عاني

ما أرى ما بقيتُ أن أذكرَ الموقفَ منها بالخَيْفِ إلاّ شجاني

لم تَدَعْ للنساءِ عندي نصيباً ... غيرَ ما قلتُ مازحاً بلساني

فقال له ابن أبي عَتِيق:

ـ أَبابنة عمّي أيضاً، يا عمر؟

فأجاب عمر في قصيدة ثانية:

** لا تَلُمِنِي عَتِيقُ حسبي الذي بي ** ** إنّ بي يا عتيقُ ما قد كفاني **

** لا تَلُمْنِي وانتَ زيّنتها لي ** ** أنت مثلُ الشيطانِ للإنسانِ **

** إنَّ بي داخلاً من الحبّ قد أَبْلى ** ** عظامي، مكنونُهُ، وبراني **

** لو بعينيك يا عتيقُ نظرنا ** ** ليلةَ السفحِ قرّتِ العينانِ **

** إذ بدا الكَشْحُ والوُشاحُ من الدرّ ** ** وَفَصْل فيه من المَرجَانِ **

** قد قَلى قلبيَ النساءَ سواها ** ** بعدما كان مُغرماً بالغواني **

أَفلا تصدّقه الحسناء عندما تسمع مثل هذه اللوعة؟ أو مثل هذا الردّ للكاشحين:

** أيها الكاشح المُعيِّرُ بالصَّرم ** ** تَزَحْزَحْ فما لها الهجرانُ **

** لا مطاعٌ في آلِ زينبَ فارجعْ ** ** أو تكلَّمْ حتى يملَّ اللسانُ **

** كيف صبري عن بعض نفسي وهل **
** يصبرُ عن بعضِ نفسهِ الانسانُ **

وها هو يزهو بنفسه هذه، لأن الجميلات هُنَّ اللواتي يطرحن في دربه الشِبَاكَ، وهذا شيءٌ من أحابيل زينب:

** مازال طرفي يَحَارُ إذ برزتْ **
** حتى رأيتُ النقصانَ في بصري **
** أبصرتها ليلةً ونسوتها **
** يمشين بين المقام والحجرِ **
** قالت لِترب لها تُحدّثها **
** لَنُفْسِدَنَّ الطوافَ في عمرِ **
** قُومي تصدَّي له لِيَعرفنَا **
** ثمّ اغمزيه يا أختُ في خَفَرِ **
** قالت لها: قد غمزتُهُ فأبى **
** ثمّ اسبطرَّتْ تسعى على أَثَرِ **

ومن أوصاف ابن أبي ربيعة بزينب، وصفه الحسيّ إذ يقول:

** خَدَلجَّةٌ إذا انصْرَفَتْ **
** رأيت وشاحَها قلقا **
** وساقاً تملأُ الخلخالَ **
** فيه تراه مختنقا **

وإن لم تتصدَّ له الحسناء، فهو يُرسل جاريته إليها:

** لـقـد أرسـلتُ جـاريـتي **
وقـلتُ لهـا خُـذِي حَـذَرَا **

** وقُـولي في مُـلاطَـفَـةٍ **
لـزيـنـبَ: نَـوِّلي عُـمَـرَا **

** فـهـزّتْ رأسَـهـا عَـجَـبـاً **
وقـالـت: مَـن بـذا أمـرا؟ **

** أهـذا سِـحْـرُكَ الـنـسـوان **
قـد خـبَّـرْنَـنِي الخـبَـرَا. **

فتوافيه الى أحد الشِعَاب فيأخذهما المطر، فيكره ان تبتلَّ ثيابها ويُقال لها: لو كنت في المكان الآمن لاستترتِ بسقائفه.. فسترها عمر بكساء خزّ كان عليه، ثم بعد ذلك يذكر براءة الموقف وقمراءَ غِبَّ المطر، وتدثّرهما بالثوب المُورَّد:

** ومَن لِسقيمٍ يكتمُ الناسَ ما بـه؟ **
لـزينبَ نجوى صـدرِهِ والوسـاوسُ **

الى قوله:

** ولستُ بـنـاسٍ ليـلةَ الـدارِ مجلسـاً **
لـزينبَ، حتى يعلوَ الـرأسَ رَامِسُ **

** خـلاءً بَـدَتْ قَـمـراؤهُ وتكـشَّـفَـتْ **
دُجُنَّتُـهُ وغـابَ مَن هـو حـارسُ **

** ومـا نلتُ منهـا مَحْـرَمـاً غـيرَ اننـا: **
كـلانـا من الثـوب المُـورّد لابسُ **

*** نَجيّين نقضي اللهوَ في غير مأثَمٍ ***

*** وإن رُغِمَتْ مِ الكاشحين المعاطسُ. ***

الثُريَّا وعمر

كانت الثُريّا من أروع حسناوات زمانها، ولعلّها هي التي حفرت في قلب عمر، أعمق الآثار، كما هي السبب أيضاً في لقبه بذي الثنيّتين، إذ كان ابن أبي ربيعه يمُازحها أمام صديق، فضربته بقفا كفّها فجاءت الضربة على فمه، وأصابعها مُختّمة، وكانت الضربة أشدّ مما أرادتها، فَكُسِرَ جُزءان من سنيّه الأماميّتين، فأصلحهما عمر عند الطبيب، فعادتا أجمل مما كانتا، في نظر الثُريّا على الأقلّ، فَلُقّبَ بذي الثنيتّين.

* * *

كانت الثُريّا تَصِيفُ بالطائف، وعمر يتنسّم أخبارها من الركبان، وبينما هو ذات يوم يسأل كمألـوف عادته، عن آخبار الطائف، قال له احد الُمكَـارِين ناقلي الفاكهة من ذلك المصيف: سمعنا قبل الرحيل صُياحاً ونحيباً على قُرَشيّة فاتنا اسمها، ولعلّه اسم نجمٍ في السماء...

فانطلق عمر بجواده في أقرب الطرق وقلبه يقفز قفزاً حتى وصل مهشّم الثياب والوجه، فاذا الثُريّا في بهوها تشعّ كألف شمس، وتنتظر انبلاج شاعرها... فَبَهُتَ هو وضحكت هي قائلة:

أَساءَك، يا عمر أننا لم نمت؟!

فعلم عندئذٍ أنها هي التي كلّفت ذلك المكـاريّ لتختبر ما لها

عنده! وفي ذلك يقول ابن ابي ربيعة في قصيدة:

*** تشكّى الكُمَيتُ الجَرْيَ لما جَهدتُهُ ***
*** وبيَّنَ لو يستطيعُ أن يتكلّما ***

*** فقلتُ له إن القَ للعين قُرَّةً ***
*** فهان عليَّ أن تَكِلَّ وتسأما ***

*** لذلك أُدْني دون خيلي رِبَاطَه ***
*** وأُوصي بهِ أنْ لا يهُان، ويُكرما. ***

* * *

غيرةُ الثُرَيّا على عمر، لا حدَّ لها، ولاسيّما عندما ترى الغواني يستبقنَ إليه، ويلتففنَ حوله، أو ينظم بهنّ شيئاً. وحين بلّغتها إحداهنّ ما قال في رملة بنتِ عبد الله، التي أصبحت زوجه، جُنّ جنون الثُريّا وقالت: لأُعَرِفَنَّهُ نفسه!

وبالفعل، عرّفته نفسه إذ إنها امتنعت عليه، وعبثاً حاول وتوسّل، فضاقتْ به الأرض واسودّت الدنيا بعينيه وحتى أم نوفل الماهرة آبتْ بالخيبات. ومن قوله وهو في تلك الحالة.

*** قال لي صاحبي ليعلمَ ما بي ***
*** أَتحُبُّ القَتُولَ أختَ الربابِ ***

*** قلتُ وجدي بها كَوَجْدِكَ بالعَذْبِ ***
*** إذا ما مُنِعتَ بَرْدَ الشرابَ ***

*** مَن رسولي الى الثُريَّا فإني ***
*** ضقتُ ذرعاً بهجرها والكتابِ؟ ***

*** غـصبـتني مجّـاجـةُ المسـكِ عقـلي ***
*** فَسلُوهـا مـاذا أحـلَّ اغـتصـابي ***

*** أَبـرزوهـا مـثـلَ المـهـاةِ تهـادى ***
*** بـين خمسٍ كـواعـبٍ أَتـرابِ ***

*** وهـي مـكـنـونـةٌ تحـيرّ منـهـا ***
*** في أَديمِ الخـدّينِ مـاءُ الشبـابِ ***

*** ثـم قـالـوا: تحُبـهـا! قلت: بهـراً ***
*** عَـدَدَ الـرمـلِ والحصى والتُـرَابِ. ***

وعندما بلغت هذه القصيدة ابن أبي عتيق، قال:

إياي يعني عمر في البيت الثالث... والله لا أذوق أكلاً أو أُصلحَ بينهما.

وشخص الى مكّة ودقّ الباب على عمر دون أن ينزل عن راحلته، فخرج عمر وسلّم، فقال ابن أبي عتيق:

أنا رسولك الى الثُريّا، فاركبْ إليها .

وَقَدِمَا الطائف فدخل ابن أبي عتيق وسلّم، فهشّتْ له الثريّا وفرحتْ، وعندما ذكر عمر عبستْ وتمنّعت أن تمسع شيئاً عنه، وبعد أخْذٍ وردّ، قال:

جشّمني عمر السفر من المدينة فجئتك مُعترفاً لك عنه بِذَنْبٍ هو براءٌ منه، فدعيني من العناد والتعنّت، وهو كما تعرفينه من الشعراء... وهؤلاء يقولون ما لا يفعلون... ولو رأيتِ نُحُولَهُ واسودادَ الدنيا بعينيه، ودموعه وتأوهه على لفتة رضاً من ثُريّاه...

فقاطعته دامعة:

بروحي هو، إذهبْ وَعُدْ به.

فوقف ابنُ ابي عتيق ونادى الواقف خارج الباب:

أدخلْ واعتذر عن إساءاتك لأحلى إلناس!

وكان تراضٍ عاد به للدنيا رونقٌ ومجلسٌ تمنَّتِ الدراري لو كنّ من جُلاّسِه.

* * *

ذات يوم ركب عمر الى اليمن في أمر عرض له، فتزوّجت الثُريّا سهيل بن عبد العزيز، في غياب شاعرها، وخرجت الى مصر. فلما عاد عمر وبلغه الخبر طار صوابه، ومن قوله:

*** أيها المنكح الثريا سهيلاً ***
*** عَمْرَكَ الله كيف يلتقيانِ ***

*** هي شامية إذا ما استقلت ***
*** وسهيلٌ إذا استقل يماني. ***

ولّما عادتِ الثريا وسمعت هذين البيتين، ذابت دُموعاً على أجمل ما كان في حياتها من حبّ... ولا سيما عندما أرسل عمر إليها هذه الأبيات:

*** كتبتُ إليك من بلدي ***
*** كتابَ مُوّلهٍ كَمِدِ ***

*** كئيبٍ واكفِ العينين ***
*** بالحسرات مُنْفَرِدِ ***

*** يُؤرّقه لهيبُ الشوق ***
*** بين السَّحْرِ والكَبِدِ ***

⁂ فَيُمْسِكُ قلبَهُ بيدٍ ⁂
⁂ ويمسحُ عينه بيدِ. ⁂

ولما قرأتها الثريا بكتْ بكاءً مراً وتمثّلت:

⁂ بنفسيَ مَن لا يستقلُّ بنفسِهِ ⁂
⁂ ومَن هو، إنْ لم يحفظِ الله، ضائعُ! ⁂

سُكينة وعمر

آمنـة، المُلقّبة بسكينة، اشتهرت بجمالها الجذّاب وذكائها وَمَزْجِهَا الجِدّ بالهزل، وقوّة إرادتها وبراعتها في النقد، وبمنتداها الأدبي الذي جاءت بمولّـدات كأنهنّ الأقمـار، وتردّد عليـه الفرزدق وغيـره من الشعراء، وعديدون من المغنينّ كابن سُريج والغريض ومعبد وحُنين الذي كان يُغنيّ على سطحها فسقط به السطح لكثرة المزدحمين، وسلم الجميع إلاّ حُنيناً، وكانت سُكينة قد دعته من العراق الى الحجاز، فقالت:

ـ كأنّا والله كنا نسوقه الى منيّته.

كانت سُكينة من أحسن الناس شَعراً وجمّتها تُسمّى السُكَيْنِيَّة.

تنافست سُكينة مرةً وعائشة بنت طلحة، في أيّ منهـما هي الأجمل، واذا بعمر بن أبي ربيعة هو الحكم بينهما، وهما عزيزتان عليه، ولم يعرف المسكين كيف يتنصّل، فاضطرّ أن يصدق وقال:

ـ أمّا أنتِ يا عائشة، فأجمل من سكينة، وأمّا سكينة فأملح منك.

صاحت سكينة:

ـ قضيتَ لي والله!

وليس غريباً أن تغضب عائشة لهذه النتيجة وان يَغتمَّ عمـر بصدقه.

وكانت سكينة ذاتَ يومٍ مع صواحب لها من أهـل المدينـة فتذاكـرن ابن أبي ربيعة وتشوّقن اليه، فقالت أنا لكنّ به، فأرسلت اليه وواعدته «الصورين» ذاكرة الليلة والوقت، فوافاها، وطال الحديث حتى لاح فجرٌ تَنَّهدَ عمر بعده هذه الأبيات:

** قـالتْ سُكينـةُ والـدمـوعُ ذوارفٌ **
** منهـا على الخدّيـنِ والجـلبـابِ **

** ليـت المـغيـريَّ الـذي لم أجـزِهِ **
** فيـما أطـال تصيّـدي وطـلابي **

** كـانت تـردّ لنـا المـنى أيّـامنـا **
** إذ لا نُلام على هـوًى وتصابِ **

** خُبّرت مـا قـالت فبتّ كـأنّمـا **
** يُـرمى الحشـا بنـوافـذ النُشّـابِ **

** أَسُكَيـنَ مـا مـاءُ الفُـرَاتِ وطيبـهُ **
** منيّ عـلى ظمـاءٍ وفَقْـدِ شـراب **

** بـأَلـذَّ مـنـكِ وإن نـأيتِ وقـلّما **
** تـرعى النسـاءُ أَمـانـةَ الغُيَّـابِ **

** إنْ تبـذلي لي نـائـلاً أشـفي بـه **
** داءَ الـفؤادِ فـقـد أَطلتِ عـذابي **

** وعـصيـتُ فيـك أقـاربي وَتَقَطَّعَتْ **
** بيني وبيـهُـمُ عُـرَى الأسبـابِ **

⁂ وتــركـتـني لا بــالــوصــال ممُـتّـعــاً ⁂
⁂ منهم ولا أسـعـفـتـني بــثــوابِ ⁂
⁂ فقعــدتُ كــالمُهْــرِيقِ فـضلةَ مــائــهِ ⁂
⁂ فيَ حَرّ هاجرةٍ لِلَمْعِ سرابِ. ⁂

عائشة وعمر

عائشة بنت طلحة، كانت روعة من روعات الجمال. قال أبو هريرة عندما رآها تمرّ في المسجد قاصدة أُمَّ المؤمنين سميّتها:

ـ سبحان الله كأنها من الحوّر العِين.

وقالت عزَّة الميلاء وهي امرأة آية بالجمال، وشهادة المرأة بالمرأة مفحمة:

ـ رأيتُ عائشةَ مُقبلةً مُدبرةً فهي ناعمةٌ ملساءُ الترائب، نقيّة الثغر وصفحة الوجه، فرعاءُ الشَعر لفّاء...

وكانت عائشةُ عفيفةً كثيرةَ الدلال، شديدةَ الكيد للنساء والرجال معاً.

غضبت مرّةً من زوجها مصعب بن الزبير فشكاها لأشعب، واعداً إياه بعشرة آلاف درهم إن جعلها ترضى، فجاءَها الشاعر فرجاها أن ترضى، بعد أن أخبرها بجائزته، فلم تفعل، فأعاد الكرَّة قائلاً:

ـ ارضي عنه ريثما يُعطيني المكافأة، ثم عودي الى ما اعتدته من سوء طباع.

ضحكت عائشة ورضيت...

* * *

وجاءت عائشة مرّةً الى هشام في أمر من أمورها، فدعا مشايخ بني أُميّة الى سهرة قائلاً:

ـ عائشة عندي.

ولم يُذكر شيءٌ من أيام العرب وأخبارها وأشعارها إلّا أفاضت عائشة معهم فيه، وما طلع نجم أو غور إلّا سمّته. فقال هشام:

ـ أمّا أخبار العرب وأيّامها وأشعارها، فلا أُنكر عليك معرفتها، ولكن أنىً لك المعرفة بالنجوم؟

قالت:

ـ أخذتها عن خالتي عائشة.

فأمر لها هشام بمائة ألف درهم.

* * *

كانت عائشة في جاهٍ وبسطة من المال يحسب حسابها الأمراء والأميرات في قريش: ذات يوم أذن عبد الملك بن مروان بالحج لزوجه عاتكة بنت يزيد بن معاوية قائلاً:

ـ استظهري فعائشة بنت طلحة تحجّ.

جاءت عاتكة بهيئة جهدت فيها... ولّما كانت بين مكّة والمدينة إذا بموكب يضغطها ويفرّق جماعتها، فقالت هي عائشة، فقالوا: هي خازنتها، ثم جاء موكب أعظم فقالت: ها هي. فقيل: بل هذه ما شطتها. ثم موكب ضخم وكوكبة فيها ثلاثمائة راحلة عليها القباب والهوادج، فقالت عاتكة:

ـ ما عند الله أفضل وأبقى.

* * *

كانت عائشة في الحج وكان عمر طبعاً، وظلّ حتى رآها ترمي الخِمَارَ سافرة، فبهت لجمالها الخلاّب، فقالت له:

ـ لقد والله كنت لهذا منك كارهة.

فقال عمر في قصيدة، منها:

⁂ غـراءُ يُعشِي النـاظـرينَ بَيَـاضُهَـا ⁂
⁂ حـوراء في غُلواء عيشٍ مُـعجِـبِ ⁂
⁂ إنّ الـتي من أرضـهـا وسـمـائـهـا ⁂
⁂ جُلِبَتْ لِحَيْنِـكَ لـيتهـا لم تُجْلَبِ ⁂

* * *

ذات يوم، أرسل أبو الخطّاب صديقه المغنيّ الغريض، ليُغنّيها هذه الأبيات:

⁂ أَجمعت خُلّتي مـع الفـجـر بَيـنـا ⁂
⁂ جـلّل الله ذلـك الـوجـهَ زينـا ⁂
⁂ أَجمـعت بـينهـا ولم نـكُ مـنهـا ⁂
⁂ لـذّة العيش والشبـاب قـضينـا ⁂
⁂ فـتـولّـت حمُـولهـا واسـتـقـلّت ⁂
⁂ لم نَنَـلْ طـائـلاً ولم نقضِ دَينـا ⁂
⁂ ولـقـد قـلت يـومَ مـكّـةُ لّمـا ⁂
⁂ أرسـلت تقـرأ الـسـلامَ عـلينـا ⁂
⁂ أنعمَ الله بـالـرسـولِ الـذي أرسـل ⁂
⁂ والمـرسـل الـرسـالـة عـيـنـا ⁂

فضحكت عائشة قائلة:

ـ وأَنعمَ الله بك يا غريض عينا وبابن ابي ربيعة عينا.

وكانت مكافأة الغريض من عمر خمسة آلاف درهم ومن عائشة خمسة آلاف.

* * *

توعّد يوماً بنو تميم ابن الخطّاب بعائشة، فوعدهم ألاَّ يذكرهَا في شعر أبداً، وكان يكني عن اسمها، ويبُلغها ما يريد على أعواد المغنينّ، ومن قوله بها:

مَـن لقـلـبٍ أمـسـى رهـيـنـاً مُـعـنّـى
مُستكينـاً قـد شَفَّـهُ مـا أجَنَّـا

إثْرَ شخصٍ نفسي فَدَتْ ذاكَ شخصاً
نَـازِح الـدار بـالـمـديـنـةِ عنّـا

إنْ أراه والله يـعـلـم يـومـاً
مـنـتـهـى رغـبـتي ومـا أَتمـنـى

ليت حـظّي كـطرفـة العـين منهـا
وكـثـير منهـا القـليـل المهـنّـا

خـبّـرينـا بمـا كـتـبـتِ إليـنـا
أَهـوَ الحـقُّ أم تهـزّأتِ مـنّـا

مـا نـرى راكبـاً يخُبّـر عـنكـم
أو يـريـد الحـجـاز إلاّ حـزنّـا

*** ثـمّ مـا تُـذكـريـن لـلقـلـب إلاّ ***
*** زِيـد شـوقـاً إليكُمُ واستـجنّـا. ***

ومن قوله بعائشة أيضاً:

*** ليس حـبٌّ فـوق مـا أَحـبـبـتـه ***
*** غـير أن أقتـل نفسي أو أُجَـن. ***

ويُقال انها هي التي نظم بها عمر بن ابي ربيعة رائيّته الجميلة، بما فيها من سرد قصصي رشيق، وعذوبة تعبير ومواقف تشدّ بالقلوب اليها شدّاً.

ويُروى انها هي أيضاً لمّحت الى ذلك وقد قضت احدى ليالي الهمّ وحيدة، ان عمر لجاهل بليلتي هذه إذ يقول:

*** وأعجبهـا من عيشهـا ظـلّ غـرفـةٍ ***
*** وريّـان ملتفّ الحـدائـق أخضـرُ ***

*** ووالٍ كـفـاهـا كـلّ شيء يهمهـا ***
*** فليست لشيء آخر الليل تسهـرُ. ***

أمّا هذه الرائيّة المشهورة، فهذا بعض أبياتها:

*** أَمِـن آلِ نُعْـمٍ أنتَ غـادٍ فَـمُبْـكِـرُ ***
*** غـداةَ غَـدٍ أَم رائـحٌ فَمُهـجّـرُ ***

*** تهيم الى نُعم فـلا الشمـل جـامـع ***
*** ولا الحبل موصول ولا القلب مُقصرُ ***

*** ولا قـرب نُعم إن دنت لـك نـافـعٌ ***
*** ولا نَـأْيهـا يسـلي ولا أنت تصبـرُ ***

الى ان قال:

** ولـيلة ذي دوران جشمّـتني الـثـرى **
** وقـد يجشم الهـول المحبّ المغـرّرُ **

** فـبتُّ رقـيبـاً لـلرفـاق عـلى شـفـا **
** أُحـاذر منهم مَن يـطوف وأنـظرُ **

** إليهـم متى يـستمكـن النـوم منهم **
** ولي مجلس لـولا اللبـانـة أوعـرُ **

** وبتُّ أُنـاجي النفس أين خبـاؤهـا **
** وكيف لِمَا آتي من الأمـر مصـدرُ **

** فَـدَلَّ عليهـا القلبُ ريَّـا عـرفتهـا **
** لها، وهوى النفس الذي كاد يظهرُ **

** فلماّ فقـدت الصـوت منهم واطفئت **
** مصـابيـح شُبَّت بـالعشـاء وأنْـوُرُ **

** وغـاب قُمَيرٌ كنتُ أرجـو غُيُـوبَـهُ **
** وروّح رعـيـانٌ ونـوّم سُـمَّـرُ **

** ونفّضتُ عني النـوم أقبـلت مشيـةَ **
** الحُبَـابِ وركُني خشيةَ القـوم أزورُ **

** فـحيـيـت إذ فـاجـأتهـا فـتـولهّـتْ **
** وكـادت بمخفـوض التحيـة تجهـرُ **

الى قوله:

*** فيا لك من ليلٍ تَقَاصَرَ طُولُهُ ***
*** وما كان ليلي قبل ذلك يقصرُ ***

*** ويا لك من ملهىً هناك ومجلس ***
*** لنا لم يُكَدِّرْهُ علينا مُكَدِّرُ ***

*** فما راعني إلاّ مُنادٍ: ترحّلوا ***
*** وقد لاح مفتوقٌ من الصبح أشقرُ ***

*** فلما رأت مَن قد تنبه منهمُ ***
*** وايقاظهم قالت أشِرْ كيف تأمر؟ ***

*** فقلتُ أُباديهم فإمّا أفوتهُم ***
*** وإمّا ينال السيفُ ثأراً فيثأرُ ***

*** فقالت أتحقيقاً لِمَا قال كاشحٌ ***
*** علينا وتصديقاً لِمَا كان يُؤثر؟ ***

موقفٌ حَرِجٌ، ما العمل:

*** فقالت لأختيَها أعينا على فتىً ***
*** أتى زائراً والأمر للأمر يقدرُ ***

*** فأقبلتا فارتاعتا ثم قالتا ***
*** أقلّي عليك اللومَ فالخطْبُ أيسرُ ***

*** فقالت لها الصغرى: سأُعطيهِ مطرفي ***
*** ودرعي وهذا البرْدُ إن كان يحذرُ ***

*** يقوم فيمشي بيننا مُتنكّراً ***
*** فلا سرّنا يفشو ولا هو يظهرُ ***

*** فكــان مجنيّ دون مَـن كنتُ أتّقي ***
*** ثـلاث شخوصٍ كـاعبـانِ ومعصـرُ ***

*** فلما أجـزنـا ســاحــة الحيّ قلنَ لي ***
*** ألمْ تَتَّقِ الأعــداءَ والليــلُ مُقْـمِـرُ ***

*** وقلنَ أهــذا دَأْبُـكَ الــدهـر ســادراً ***
*** أمـا تستحي أو ترعـوي أو تُفَكّـرُ ***

*** إذا جئتَ فَامْنَحْ طَرْفَ عينيكَ غيـرَنا ***
*** لكي يحسبوا أن الهوى حيث تنظرُ. ***

هند وعمر

كانت هند بنت الحارث المرّية من الجميلات الذكيّات جداً. حاول عمر بن ابي ربيعة الاتصال بها مرةً، ليُسمعها قصيدة جديدة، فلما وجدها ولا قيل له أين هي، فاستسلم لحيرةٍ كئيبةٍ، حيرة لم يتعوّدها من قبل، وهو قبلة الغواني، أليس هو القائل:

** بينما يَنْعَتْنَنِي أَبْصَرْنَنِي **
** دون قيدِ الميلِ يعدو بي الأغرْ **

** قالت الكبرى: أتعرفنَ الفتى؟ **
** قالت الوسطى: نَعَمْ هذا عُمَرْ **

** قالت الصغرى، وقد تيّمْتُهَا: **
** قد عرفناه وهل يَخفَى القمَرْ؟ **

أين هنّ الآن؟

واذا بخالد صديقه، يُطِلّ ويهمس له ان هند وصديقاتها على غدير ماء يقضين وقتهنّ، فقال عمر: هيّا بنا. فقال خالد: الأفضل أن نخدعهنّ فنرتدي ملابس رثّة ونتلثّم ونمتطي راحلتين هزيلتين، وننزل على مقربة منهنّ.

وهكذا وصلا الى غدير الماء، فرأيا هند وصواحبها يرتدين أزهى الأبراد، وهنّ كالشموس المشرقة، فعقلا راحلتيهما وغسلا أيديهما وجلسا

الى ظلّ ناعم، واذا بصوت رخيم يناديهما:

ـ يا أخوي العرب تعاليا اجلسا معنا وأخبرانا ما وراءكما إذ يظهر أنكما غريبان.

اعتذرا لِما هما عليه من سوء حال... فقالت صاحبة الصوت:

ـ لا عليكما... تقدّما.

فدنوا منهنّ، وكان جوّ مجلسهنّ يموج بالعبير، فقالت احداهنّ:

ـ أسمعانا شيئاً من الشعر إن كنتما ترويان.

أَسمعهما عمر من شعر جميل بن معمر وكُثيرّ عَزَّة وغيرهما، فأعجبن بما سمعنه، فقالت هند:

ـ أَما تروي يا أخي شيئاً لابن أبي ربيعة؟

ـ أروي له قصيدة لا أظنّ أحداً غيري قد سمعها، إذ جمعتنا القفار ليلة أمس فخلب لُبّي بها.

قالت هند:

ـ هاتها بالله عليك.

فأنشد:

*** ليتَ هنداً أَنْجَزَتْنَا ما تَعِدْ ***
*** وَشَفَتْ أَنفسَنَا مِمَّا تجَدْ ***

*** واستبدَّتْ مرةً واحدةً ***
*** إنما العاجزُ مَن لا يستبدّ ***

*** ولقد قالت لجاراتٍ لها ***
*** وتعرّتْ ذاتَ يومٍ تبتَرِدْ: ***

** أَكـما يِـنْـعَـتُـنِي تُـبْـصِـرْنَـنِي **
** عمَـرَكُنَّ اللهَ أَمْ لاَ يَقْتَصِـدْ... **

فصاحت هند:

ـ ويحه ما أدراه بهذه الأمور الخصوصية؟

فقال المنشد:

ـ لعلّه عالم بالنجوم.

فقالت:

ـ بالله أكمل.

فأنشد:

** فـتـضـاحـكـن وقـد قـلنَ لهـا **
** حسنٌ في كـلّ عـينٍ مَن تـودّ **
** حـسـداً حمِّلْنَـهُ مـن أجـلهـا **
** وقـديمـاً كـان في النـاس الحسـدْ. **

هلّلت الغواني إعجاباً وقالت هند:

ـ لا فضّ فوك يا عمر، لقد شفيت نفسي من حسدهنّ، أَكمِلْ أيها المنشد البارع.

فأنشد:

** طـفـلـةٌ بـاردةُ الـقَـيظِ إذا **
** معمعـانُ الصيف أضحى يَـتَّقِـدْ **
** حـدّثـوني أنها لي نَـفَـثَـتْ **
** عقـداً، يـا حبّـذا تلك العقـدْ **

** كلّما قلتُ متى مِيعَادُنَا **
** ضحكتْ هند وقالت: بعد غَدْ. **

صفقّت الحسناوات وتنّهدت هند قائلة:

- ليتك بيننا يا عمر، لكافأتك بأطيب ما تتمنّ.

خلع عمر اللثام عن وجهه وصاح:

- لبيّك يا هند، أنا هنا. أترين كيف خدعتك؟

فقهقهت قائلة:

- بل أنا التي خدعتك بخالد، لتجيء بملابسك الرثّة ونحن كما ترى...

فنظر عمر الى خالد فرآه مبتسمًا... فقال:

- والمكافأة، على الأقل، يا هند؟

فأجابت:

بعد غد، يا عمر.

* * *

وعاد المتنزهون وقد خلا المكان من أنسه وراح عمر ينتظر حلول «بعد غد» مترنمًا عينيّته الرائعة:

** ألم تسألِ الأطلال والمتربّعا **
** ببطنِ حليّاتٍ دوارسَ بلقعا **
** الى السرْحِ من وادي المغمس بدلّتْ **
** معالمه وبلا ونكباء زعزعا **

*** فيبخلن أو يخبــرن بـالعلم بعــدمــا ***
نكـأنَ فؤاداً كـان قـدْمـاً مفجعّــا ***

*** لهــنــد وأتــراب لهــنــد إذِ الهــوى ***
جميـعٌ وإذ لم نخشَ أن يتصدّعـا. ***

نوار والفرزدق

نوار هي ابنة عمّ الفرزدق، وكان الشاعر الأمويّ، وليّها. كانت نوار تحبّ رجلا من دارم خطبها فرضيته وأرسلت الى ابن عمها الفرزدق تطلب اليه أن يزوّجها إيّاه، فقال الفرزدق:

ـ لا أفعل أو تشهديني انك رضيت بمن زوجّتك...

فقالت نوار:

ـ سمعاً وطاعة يا أبا فراس، يا مَن جدّه أحيا الوئيدة:

** وجـدّي الـذي منـع الـوائـدات **
** وأحـيـا الـوئـيـدَ فـلـم يُـوأدِ **

وجدّ الفرزدق، صعصعة، هو الذي أحيا الموؤودات ومنع النساء من وأد بناتهنّ، فلم تعد تُدفن البنت حيّةً حين ولادتها، تخلّصاً من عار سَبْيِهَا.

الفرزدق: يا بني مجاشع بن دارم حمداً لله وشكراً...

قد علمتم ان النوار قد ولّتني أمرها، وأشهدكم اني قد زوّجتها نفسي على مائة ناقة حمراء، سوداء الحدقة.

نوار: يا لك من شاعر خبيث، يا غليظ الوجه واللسان.

* * *

ونفرت منه النوار الى مكّة فتبعها الفرزدق وظلّ بها حتى اصطلحا على ان يرجعا الى البصرة ويحُكّما في أمرهما بني تميم، ومكثت عنده النوار زماناً ترضى عنه حيناً وتخاصمه أحياناً. وظلّت تُرقّقه وتستعطفه حتى أجابها الى طلاقها وأخذ عليها أن لا تفارقه ولا تبرح من منزله ولا تتزوّج رجلاً بعده... ثم ندم وتحسّر، فقال:

*** ندمتُ ندامة الكُسَعِيِّ لمّا ***
*** غدتْ مني مطلقّة نوارُ ***

*** وكانت جنّتي فخرجتُ منها ***
*** كآدمَ حين أَخرجه الضرارُ ***

*** وكنتُ كفاقىءٍ عينيه عمداً ***
*** فأصبح ما يضيء له النهارُ. ***

عَزَّة وكُثَيِّر

هو أبو صخر كُثَيِّر بن قحطان. أمه جمعة بنت ابي جمعة بن حارثة، ولذلك يُقال لكثيرّ: ابن أبي جمعة.

انه من فحول الشعراء، جعله ابن سلّام في الطبقة الأولى منهم، وقرن به جريراً والفرزدق والأخطل. وكان كثيرّ محمقاً مشهوراً بذلك، وكان قصير القامة وتيّاهاً ومدّعياً .

امّا قصة لقبه بكثيرّ عزة، فقد كان يرعى ذات يوم غنمًا على سفح جبل معشوشب، وكان قُبالته نسوةٌ جالسات على طعام، واذا بهن يُبصرن كبشاً مكتظّاً، فارتأين أن يُرسلن ابنة معهنّ تُدعى عزّة لتطلب الكبش من الرجل، على ان يَدفعنَ ثمنه في طريق العودة. . .

* * *

*** قضى كـلّ ذي دَينٍ فوفّى غـريمَـهُ ***
*** وَعــزَّةُ ممـطولٌ مُـعنىّ غـرِيمُـهَـا ***

*** من الخَفِـرَاتِ البيض وُدَّ جَـلِيسُـهَـا ***
*** إذا ما انقضت أُحدوثةٌ لو تُعِيـدها ***

*** نـظرتُ إليهـا نـظرةً مـا يسـرّني ***
*** بهـا حمُرُ أَنعـامِ البـلادِ وسُـودُهَـا ***

السلام عليك، يا أخا العرب. يَقُلْنَ لك النسوَةُ: «بعنا كبشاً من هذه الغنم وأنسئنا بثمنه الى ان ترجع».

قال كثيّر:

إليك به، وبكل ما تطلبين يا جميلةَ العينين، وناصعة اليدين.

❋ ❋ ❋

ـ هذه دراهمك يا أخ، وشكراً لك.

ـ لن آخذها... أين الصبيّة التي أخذت منيّ الكبش؟

ـ وما شأنك بها؟ هذه دراهمك.

ـ لن آخذ الدراهم إلّا ممّن دفعتُ الكبشَ اليها:

** قضى كــلّ ذي دَينٍ فـوفّى غــريمــه **
** وعَــزَّةُ ممـطولٌ معـنّى غـريمـهـا **
** من الخفــرات البيض وُدَّ جـليسُـهَـا **
** إذا ما انقضت أُحدوثةٌ لو تُعيدُهــا **

❋ ❋ ❋

** خليــليّ هــذا ربــع عـزة فـاعقـلا **
** قلوصيكـما ثم ابكيـا حيث حلّتِ **
** ومـا كنتُ أدري قبل عـزّة ما البكـا **
** ولا مُـوجعـاتِ القلب حتى تَـولّتِ **
** فليت قُـلُوصي عـنـد عَــزَّةَ قُيِّـدتْ **
** بحبــلٍ ضعيفٍ بان منهـا فَضَلَّتِ **

** فأصبح في القوم المقيمين رَحْلُهَا **
** وكان لها باغٍ سوايَ فبولَّتِ **

** فقلتُ لها يا عَزَّ كلُّ مصيبةٍ **
** إذا وُطِّنَتْ يوماً لها النفسُ ذَلَّتِ **

** أَسِيئي بنا أو أَحسني لا ملومةٌ **
** لدينا، ولا مَقْلِيَّةٌ إنْ تَقَلَّتِ **

** هنيئاً مريئاً غيرَ داءٍ مُخَامِرٍ **
** لِعَزَّةَ من أعراضنا ما استحلّتِ **

** تمنيّتها حتى إذا ما رأيتها **
** رأيتُ المنايا شُرَّعاً قد أظَلَّتِ **

** أصاب الردى مَن بات ينوي لك الردى **
** وجُنَّ اللواتي قُلْنَ عَزَّةَ جُنَّتِ. **

* * *

وبعد أعوام، وكان كثيّر قد تقرّب من عزّة، التقت عزّة ببثينة فاتفقتا على الايقاع بالشاعر، فقالت عزّة:

يا بثينة، بحقّ جميل بن معمر الذي يقول:

** فلربّ عارضةٍ علينا وَصْلَهَا **
** بالجِدِّ تخلطه بقول الهازلِ **

** صادتْ فؤادي يا بثينَ حبالكُم **
** يومَ الحَجُونِ وأخطأتكِ حبائلي **

*** حــاولـنني لأبـتَّ حبــل وصــالـكـم ***
*** مني، ولستُ وإنْ جُهِـدْنَ بفـاعـل ***

*** يَـعْضَـضْنَ مـن غيظٍ عــليَّ أنــامــلاً ***
*** وودِدتُ لـو يعضضنَ صُمَّ جنـادلِ ***

بحقّ جميل، هذا العذري المخلص، أُريد أن أعرف هل لكثيّر شيء من هذا الاخلاص. تصدَّي له وأطمعيه... حتى نسمع ما يُجيبك به، وأنا وراءَك متخفية.

*** *** ***

بثينة: «قضى كلّ ذي دَينٍ فوفَّى غريمه...»

كثيّر: السلام عليك يا بُثينة، يا فاتنة الشعراء من عذريين وغير عذريين...

بثينة: أما تقول فِيَّ غير ذلك؟

*** كثـيرّ: رمتني على عمـدٍ بثينة بعـدما ***
*** تــولَّى شبــابي وارجحنّ شبــابهــا ***

*** بعينــين نجــلاوين لــو رقــرقتهــما ***
*** لنــوء الثريــا لاستهـلّ سحــابهـا ***

عزّة: ... وعزّة، يا كثيرّ...

*** كثـيرّ: ولكنما تـرمـين نفسـاً مـريضـةً ***
*** لعــزّة منهــا صفــوهــا ولُبَــابهُــا ***

ليـــلى وقيـــس

هي ليلى العامريّة، وهو قيس الملوّح العامري، أَحبَّ ليلى ابنةَ عمّه فذهبت بقلبه وعقله، وترك لنا أجمل الشِعر في الوفاء، وقصة حُبّ عظيم تناقلتها البوادي والحواضر.

كانت ليلى وقيس صغيرين يرعيان مواشي أهلهما، فعلق كلّ واحد منهما صاحبه، ولم يزالا كذلك حتى كبرا، فَحُجِبَتْ عنه ليلى، فتنّهد قائلاً مُتذّكراً:

*** تعلّقتُ ليلى وهي ذاتُ ذؤابةٍ ***
*** ولم يبدُ للأتراب من ثديها حَجْمُ ***

*** صغيرين نرعى البهْمَ، يا ليت أَنّنا ***
*** إلى اليوم لم نكبرْ ولم تَكبَرِ البَهْمُ ***

ولّما شهرَ أَمرُ قيس وليلى وتناشدَ الناسُ ما قاله فيها من شعر، حاول قيس أَن يخطبها فمانع أهلها وزوّجوها سواه على كُرْهٍ منها، فقالت بعد ذلك:

*** كلانا مُظهِرٌ للناس بُغْضاً ***
*** وكلٌّ عند صاحبهِ مَكِينُ ***

** وأســرارُ المَـلاحِظِ لـيس تخَـفَـى **
وقـد تُغرِي بـذي اللحظِ العيـونُ **

* * *

يُقال إن ابن الملوّح قد اختلط عقلُهُ بعد أن سمع ذينك البيتين من ليلى، فخرَّ مغشياً عليه، ثم أَفاق فاقداً عقله، فاذا ذُكِرَتْ ليلى عاد إليه عقلُهُ وأَنشأ يقولُ ويحُدّث عنها، فلا يخُطِىء حرفاً:

** إذا ذُكِـرَتْ ليـلى عَقَـلتُ وراجعـتْ **
عـوازبُ عقـلي من هـوىً مُتَشَعّبِ **

** وأصبحتُ من ليـلى الغـداة كنـاظرٍ **
معَ الصُبحِ في أعقابِ نجمٍ مُغَرّبِ **

** أَلا إنمـا غـادرتِ يـا أُمَّ مـالـكٍ **
صدىً أينما تذهبْ به الريحُ يذهب **

ولّما اختلط عقل قيس، وترك الطعام والشراب، مضتْ أُمُّهُ الى ليلى وأخبرتها ما حلّ به وقالت لها:

لو جئتِه وقتاً، يا أُمَّ مالك، لَرَجَوتُ أن يثوبَ إليه بعضُ عقلِه.

فأَتَتْهُ ليلاً وقالت له:

يا قيس إن أُمك تزعم انك جُنِنتَ من أجلي، فتركتَ المطعمَ والمشرَبَ، فاتّقِ الله، وأبقِ على نفسك.

فقال المجنون:

** قـالت جُننتَ عـلى أَيش فقلتُ لهـا **
الحبُّ أعـظمُ ممّـا بـالمجـانيـن **

** ألحبُّ ليس يُفيقُ الـدهـرَ صـاحبُـهُ **
** وإنمـا يُصـرَعُ المجنـون في الحيـنِ **

* * *

ذات يوم، خرج المجنون مع بعض قومه في سفر، فمروا في طريق متشعّب طريقين، أحدهما ينزله رهط ليلى، فسألهم أن يعدلوا معه في تلك الطريق فأبَوا، ومضى وحده يُردّد:

** أأَتـركُ لـيـلى لـيس بـيـني وبـيـنهـا **
** سـوى سـاعـةٍ إني إذاً لَصَبُـورُ **
** هَبُـوني امـرأً منكم أضـلَّ بَـعِيـرَهُ **
** لـه حـرمـةٌ إنَّ الـذِمَـامَ كبـيرُ **
** وللصاحبِ المتروكِ أعـظم حُـرقـةً **
** على صاحبٍ من أن يَضِـلَّ بعيرُ. **

* * *

لام المجنونَ أهلُهُ وأصحابُهُ وطلبوا اليه أن ينسى ليلى، فقال:

** يقـولُ أُنـاسٌ عـلَّ مجنـونَ عـامـرٍ **
** يَـرُومُ سُلُواً قلتُ أنىَّ لِمـا بيـا **
** وقـد لامني في حُبّ لـيـلى قَـرابتي **
** أَخي وابنُ عمّي وابنُ خالي وخاليا **
** يقـولـون لـيـلى أهـلُ بيتِ عـداوةٍ **
** بنفسيَ لـيـلى من عـدوٍّ ومـاليـا. **

وراح المجنون يهيم في البريّة مع الوحش لا يأكل إلّا مع الظباء إذا ورَدَتْ مناهلَها، وطال شَعرُ جسده ورأسه، وأَلِفَتْهُ الوحوش. وظلّ على تلك الحال حتى مات، فقيل:

ما رُئيَ يومٌ كان أَكثَر باكياً وباكيةً على ميّتٍ منه...

لُبنى وقيس

قيس بن ذريح يمرّ بخيام كعب بن خزاعة، والحيُّ غيبٌ وخيمة لُبنى يندلح منها المسك والعنبر، والشاعر تقوده الأطياب مثقلا بحنين خفيّ.

واذا بلبنى زنبقةٌ مديدةٌ شهلاء، تقف الى شجرة مزهرة ترقب القادم الغريب. ويصل الشاعر الشرود ويرى لبنى وتشتبك النظرات ويظمأ الفؤاد، فيطلب الشاعر ماءً فتبتسم لبنى وتذهب وتعود به اليه، فيشرب قيس وينصرف وفي قلبه من لبنى حرٌّ لا يُطفأ.

ويعود الشاعر في يومٍ آخرَ وقد اشتدّ وَجْدُهُ بلبنى، فيشكو إليها ما يجَدُ بها وما يلقى من حُبّها، وتشكو هي إليه مثل ما به منها... ويطلب يَدها فيمانع أَهلها في أن يتزوجّها ويدخل المصلحون ويجمع سقفٌ واحدٌ حبيبَين ما عرفا سوى المحبّة والاخلاص.

وتمرّ الأيام ولا وارثَ لقيس ولا حفيد لِذَريح، ولم يتركه والداه إلّا بعد ان طلّق لبنى مُكرهاً فاستطار عَقلُهُ وَلِحَقَهُ مثلُ الجنون.

وكانت ليلة قمراء رحلت فيها لبنى بهودج على ناقة وبإبل تحمل أثاثها فيسقط الشاعر مغشياً عليه ويُفِيقُ متنهّداً:

*** وإنيّ لَمُفْنٍ دمعَ عينيّ بالبكا ***

*** حَذارِ الذي قد كان أو هو كائنُ ***

**وقـالـوا غـداً أو بعـد ذاك بليـلةٍ **
** فِـرَاقُ حبيبٍ لم يَبِنْ وهـو بـائنُ **

**ومـا كنتُ أَخشى أن تكـونَ منيّتي **
** بكفيـكِ إلاّ أنَّ ما حـان حـائنُ. **

ؤ ؤ ؤ

**يقـولـون لُبنى فتنـةً كنتَ قبلَهـا **
** بخـيرٍ فـلا تَنـدَمْ عليهـا وَطَلِّقِ **

**فطاوعتُ أعدائي وعـاصيتُ ناصحي **
** وأقـررتُ عيَنَ الشـامتِ المُتَخَلِّقِ **

**وددتُ وبـيـت الله إني عـصيتـهـم **
** وحُمِلّتُ في رَضـوانها كـلّ مُـوبِقِ **

**وكلّفتُ خـوضَ البحرِ والبحـرُ زاخـرٌ **
** أبيتُ عـلى أثبـاجِ مـوجٍ مُغَـرِّقِ **

**كـأنيّ أرى النـاسَ المُحبّـيَنَ بعدهـا **
** عُـصَـارَةَ مـاءِ الحنـظلِ المُتفَـلِّقِ **

**فَتُنْكِـرُ عيني بعـدهـا كـلَّ منـظرٍ **
** وَيَكْـرَهُ سَمْعِي بعدهـا كُلَّ مَنْطِقِ **

* * *

مرض قيس، وبكى الحُبَّ شعراً يفيض بالإخلاص والندامة، وهام على وجهه في أحياء العرب، فرأى جارية حسناء هي كالبدر ليلة

تَمِهِ، واذا اسمها لُبنى فتزوّجها، وبلغ لبنى زوجَهُ السابقة زواجُهُ فقالت:

إنه لغدّار، لقد كنتُ أمتنع من إجابة قومي الى التزويج، فأنا الآن أُجيبهم.

وتزوجّت لبنى رجلًا يعرف بخالد بن حلّزة من غطفان، فقالت النساء ليلة زفافها:

** لُبَيْنَى زوجها أصبح **
** لا حُرٌّ بواديهِ **
** له فضلٌ على الناسِ **
** بما باتَتْ تُناجيهِ **
** وقيسٌ ميّتٌ حيًّا **
** صريعٌ في بواكيهِ **
** فلا يُبْعِدُهُ الله **
** وَبُعْداً لِنَوَاعيهِ. **

جزع قيس لّما سمع تلك الأبيات، فحزن أيما حزن، وراح يُردّد:

** الى الله أشكو فَقْدَ لُبنى كما شكا **
** الى الله فَقْدَ الوالدينِ يتيمُ **
** يتيمٌ جفاه الأقربون فَجسْمُهُ **
** نحيلٌ وعهدُ الوالدين قديمُ **
** بكتْ دَارُهُمْ من نأيهم فتهلّلتْ **
** دموعي فأيَّ الجَازِعَيْنِ أَلومُ **

** أَمُسْتَعْبِـراً يبكي من الحَـرّ والجَـوى **
** أَمَ آخَـرُ يـبكي شجـوَهُ ويهـيـمُ **

** تهـيّضـني مـن حُـبّ لُبـنى عـلائـقٌ **
** وأصـنـافُ حُبّ هَـوْلُهُنَّ عـظيمُ **

** ومَـن يـتـعـلّقْ حُـبَّ لُبـنىَ فُـؤادُهُ **
** يَمُتْ أو يَعِشْ ما عاش وهو كليمُ **

** وإني وإن أَزْمَـعْـتُ عـنـك تجـلّداً **
** عـلى العهـدِ فيـما بيننـا لَمُقِيمُ **

** وإنّ زمـانـاً شَتَّتَ الشمـلَ بـيـنـنـا **
** وبـينـكُـمُ فـيـه العِـدَا لَمَشُـومُ **

** أَفي الحـقّ هـذا إنّ قـلبَـكِ فـارغٌ **
** صحيـحٌ وقلبي في هـواكِ سقيمُ. **

* * *

بُريكةُ امرأةٌ من موالي بني زَهـرة، وهي من أظرف النسـاء وأكرمهنّ، وهل تبخل بريكة على قيس، وقد أتاها ليرى لُبنى نظرةً واحدة؟

وتردّ لُبنى زيارَةَ بريكة وهي تعلم أن قيساً عندها، ويبكي الاثنان ثم تطلب اليه أن يُسمعها ما أحدثه في علّته، فأنشدها قوله:

** أُعـالـجُ من نفسي بقـايـا خُشَـاشَـةٍ **
** عـلى رَمَقٍ والعـائـداتُ تـعـودُ **

** فإن ذِكرَت لبنى هَششتُ لـذكـرهـا **
** كـما هشَّ للثدي الـدَرُورِ وليـدُ **

** أُجيـبُ بـلبنى مَـن دعـاني تجلّداً **
** وبي زفـراتٌ تـنجـلي وتـعـودُ **

** ألا ليت أيـامـاً مـضـيَن تعـودُ **
** فـإنْ عُـدْنَ يـومـاً إنني لسعيـدُ **

** سقى دارَ لُـبنى حـيث حلّت وخيّمت **
** من الأرض منهـلُّ الغمـام رُعُـودُ **

** فلا اليأسُ يُسليني ولا القُربُ نافعي **
** ولُبنى مَـنُـوعُ مـا تـكـادُ تجـودُ **

** رَمَـتْنِي لُـبَيـنى في الفـؤاد بسـهـمـهـا **
** وسـهـمُ لُـبـيـنى لـلفـؤادِ صَـيُـودُ **

** سـلا كلُّ ذي شجـوٍ علمتُ مكـانَـهُ **
** وقـلبي لـلبـنى مـا حَـيِـيـتُ ودودُ **

** وقـائـلـةٍ قـد مـات أو هـو ميّتٌ **
** وللنفسِ مـنيّ ان تفـيضَ رصيـدُ **

* * *

وعاتبته لبنى على تزوّجه. . . فحلف أنه لم ينظر اليها ملء عينيه، ولا دنا منها، وانما لبنى اسمها جَذَبَهُ اليها.

وعاد الحبيبان المتيّمان قيس ولبنى الى عشقهما من جديد، وبقي الشاعر على حبّه واخلاصه لها، وبقيت لبنى كذلك. . .

ليلى وتوبة

⁂ نـأتْـكَ بليـلى دَارُهَـا مـا تَـزُورُهَـا ⁂
⁂ وشـطّتْ نَواهـا واستمـرَّ مَـرِيـرُهَـا ⁂

⁂ حمـامـةُ بَـطْنِ الـواديـين تـرنّمي ⁂
⁂ سقـاكِ من الغُرِّ الغـوادي مَطِيـرُهَا ⁂

⁂ أَبيني لـنـا مـازال ريشُـكِ نـاعـمًا ⁂
⁂ ولازلتِ في خضـراءَ دانٍ بـريـرهـا ⁂

⁂ وأُشـرِفُ بـالـقَـوزِ اليـفـاع لعـلّني ⁂
⁂ أَرى نـارَ ليلى أو يَـراني بصيـرهـا ⁂

⁂ عـليَّ دمـاءُ البَـدْنِ إنْ كـان بَعلُهَـا ⁂
⁂ وما كان في قولي اسلمي ما يَضِيرُهَا ⁂

تلك أبيات توبةَ بن الحِمْيَر قالها في نسيبته ليلى الأخيليّة، بعد أن زارها في منزلها الزوجي ولم يرَ منها اليه بشاشة.

وليلى الأخيلية، هي من شعراء الدولة الأمويّة، أحبها تـوبة فخطبها الى أبيها فلم يُوافق وزوجّها سواه، فهام الشاعر على وجهه حتى قُتِلَ على أيدي أعدائه.

⁂ ⁂ ⁂

قالت ليلى الأخيليّة:

قال لي توبة ليلةً وقد خلونا، كلمةً ظننتُ أنه قد خضع فيها لبعضِ الأمر، فأجبته بهذين البيتين:

*** وَذِي حاجةٍ قلنا لـه لا يَبُحْ بها ***
*** فليس إليها ما حَييتَ سبيلُ ***

*** لنا صاحبٌ لا ينبغي ان نُخَونَهُ ***
*** وأنتَ لأُخرى فارغٌ وحليلُ. ***

وبعد ذلك، وجّه توبةُ صاحباً له، فاعتلى تلّة قُبالَةَ بيتنا وهتف:

*** عفا الله عنها هل أَبيتنَّ ليلةً ***
*** من الدهرِ لا يسري إليّ خيالها ***

فأجابت ليلى على الفور:

*** وعنه عفا ربيّ وأَحسن حِفْظَهُ ***
*** عزيزٌ علينا حاجةً لا ينالُهَا ***

* * *

عندما بلغ ليلى الأخيليّة مَقتلُ توبةَ، رثته بأكثر من قصيدة، قالت في إحداها:

*** أَقسمتُ أَرثي بعد توبةَ هالكا ***
*** وأَحفِلُ من دارتْ عليهِ الدوائرُ ***

*** لَعَمركَ ما بالموتِ عارٌ على الفتى ***
*** إذا لم تُصِبْهُ في الحياةِ المعايرُ ***

** وما أحدٌ حيٌّ وإنْ عاش سالماً **
** بأخلدَ مِّمن غيبّتْهُ المقابرُ **
** ومَن كان مّمن يحُدِثُ الدهر جازعاً **
** فلا بدّ يوماً أن يرى وهو صابرُ **
** وكلّ قرينَي أُلفةٍ لِتَفرُقٍ **
** شتاتاً وإِن ضَنَّا وطال التعاشرُ **
** فلا يُبْعِدَنْكَ الله حياً وميّتاً **
** أخا الحرب إنْ دارتْ عليكَ الدوائرُ **
** فآليتُ لا أنفكُّ أَبكيكَ ما دَعَتْ **
** على فَنَنٍ وَرْقَاءُ أو طار طائرُ **

* * *

وذات يوم، مرّت ليلى الأخيليّة بقبر توبة بن الحمير ومعها زوجها، وهي في هودجٍ لها، فقالت:

والله لا أبرح حتى أُسلّم على توبة...

وجعل زوجها يمنعها، وتأبى إلاّ ان تحُقّق غايتها،فصعدت أَكَمة عليها قبرُ تَوبة، وقالت: السلام عليك، يا توبة...

ثم حولّتْ وجهها الى الناس الذين كانوا بالقرب من ذلك المكان، وقالت:

والله ما عرفتُ له كذبةً قطُّ قبل هذه! أليس هو القائل:

** ولو ان ليلى الأخيليّة سلّمتْ **
** عليَّ ودُوني تربةٌ وصفائحُ **

لسلّمتُ تسليمَ البشاشةِ أو زقا
إليها صدىً من داخلِ التُرْبِ صائحُ

وأُغْبَطُ من ليلى بما لا أنالُهُ
ألا كلُّ ما قَرَّتْ به العيُن صالحُ

* * *

وكان في جانب القبر بومةٌ كامنةٌ، فلّما رأتِ الهودجَ واضطرابه فزعت وطارت في وجه الجمل، فنفر ورمى ليلى على رأسها فماتت، ودُفنت الى جانب توبة...

عاتكة وأبو دهبل

كان أبو دهبل رجلاً جميلاً شاعراً، وكانت له جُمّةٌ يُرسلها تضرب منكبيه. قال الشعر في خلافة علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، ومدح معاوية بن أبي سُفيان، وعبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وولاه ابن الزبير بعض أعمال اليمن.

ذُكِرَ أن عاتكة بنتَ معاوية بن أبي سفيان حجَّت فنزلت بذي طُوىً، وبينما هي جالسة وقد اشتدّ الحرّ وانقطع الطريق، أمرت جواريها فرفعنَ السترَ، وهي جالسة في مجلسها، عليها شفوف، تنظر الى الطريق، فمرّ أبو دهبل الجحميّ، وكان من احسن الناس وجهاً وأجملهم منظراً، فوقف طويلاً ينظر إليها والى جمالها، وهي غافلة عنه، فلما فطنتْ له، سترت وجهها بطرح الستر ووبخّته، فقال أبو دهبل:

إني دعاني الحَينُ فاقتادني
حتى رأيتُ الظبيَ بالبابِ

يا حُسنَهُ إذ سبّني مُدبراً
مُستتراً عنّيّ بجلبابِ

سبحان من وقّفها حسرةً
صبّتْ على القلبِ بأوصابِ

*** يــذودُ عــنهــا إنْ تــطلبّــتَــهــا ***
أَبٌ لهــا لــيس بــوهّــابِ ***

*** أَحــلّهــا قــصــراً مــنيــعَ الــذرى ***
يحُــمــى بــأبــوابٍ وَحُــجّــابِ. ***

وشاعتْ تلك الأبيات بمكّة وَشُهِرَتْ، وغنىّ فيها المغنّون حتى سمعتها عاتكة إنشاداً وغناءً، فضحكت وأعجبتها، فبعثت الى الشاعر بكسوة. وجرت الرسل بينهما، فلّما صدرت عن مكّة خرج معها الى الشام، فنزل قريباً منها، فكانت تُعَاهِدُهُ بالبرِّ واللَطَفِ، ومرض بدمشق مرضاً طويلاً، فقال في ذلك:

*** طــال لــيــلي وبــتُّ كــالمــحــزونِ ***
ومــللتُ الــثــواءَ في جــيــرونِ ***

*** وأطــلــتُ المُقــامَ بــالــشــام حــتى ***
ظنّ أهــلي مُــرجمّــات الــظنــونِ ***

*** فــبَــكَــتْ خِــشــيَــةَ الــتَــفــرُّقِ جُمْــلٌ ***
كــبكــاءِ الــقــرينِ اثــر الــقــرينِ ***

*** ولــقــد قــلتُ إذ تــطاولَ سُــقــمــي ***
وتــقــلبّــتُ لــيــلتي في فــنــونِ ***

*** ليت شعــري أَعَنْ هوىً طــار نــومي ***
أَم بــراني البــاري قصــيرَ الجفــونِ ***

*** وهي زهــراءُ مثــل لؤلؤةِ الغــواص ***
مِــيــزتْ مــن جــوهــرٍ مــكــنــونِ ***

** وإذا ما نسبتها لم تجِدْهَا **
** في سناءٍ من المكارمِ دُونِ **

** ثمّ خاصرتها الى القبّة الخضراء **
** تمشي في مرمرٍ مسنونِ **

شاع هذا الشعر حتى بلغ معاوية بن أبي سفيان فطلب أبا دهبل فاحضر له فقال معاوية:

ما ظننتُ أن في قريش أشعر منك، يا أبا دهبل حيث تقول:

** ولقد قلتُ إذ تطاول سُقمي **
** وتقلّبتُ ليلتي في فنونِ **

** ليت شِعري أَعَنْ هوىً طار نومي **
** أَم براني الباري قصيرَ الجفونِ **

** وهي زهراءُ مثل لؤلؤة الغواصِ **
** مِيزت من جوهرٍ مكنونِ **

** وإذا ما نسبتها لم تجِدْها **
** في سناءٍ من المكارم دُونِ **

فوالله، إن فتاة أبوها معاوية، وجدّها أبو سفيان، وجدّتها هند بنت عتبة، لكما ذكرت، فأيّ شيء زدتَ في قَدْرِهَا... ولقد أسأتَ في قولك:

** ثُمَّ خَاصرتها الى القبّة الخضراء **
** تمشي في مرمرٍ مسنونِ **

فقال أبو دهبل:

والله، يا أمير المؤمنين، ما قلت هذا، وإنما قيل على لساني.

فأجابه أمير المؤمنين:

أمّا من جهتي فلا خوف عليك، لأنني أعلم صيانة ابنتي نفسها، وأعلم أن فتيان الشعراء لم يتركوا أن يقولوا في النسيب كل من جاز أن يقولوه فيه، وكل ما لم يجزْ، وإنما أكره لك يا أبا دهبل، جوار يزيد، وأخاف عليك وثباته، فإنّ له ثورة الشباب وأنفة الملوك.

وكأنما أراد معاوية بقوله ذاك، ان يهرب أبو دهبل فتنقضي المقالة، فَحَذِرَ أبو دهبل وخرج الى مكّة هارباً على وجهه، وجعل يكاتب عاتكة...

ذات يوم، بينما كان معاوية في مجلسه، اذ جاءه أحد خدّامه فقال له:

يا أمير المؤمنين، لقد تسلّمت عاتكةُ كتاباً فلما قرأته بكت، ثم أخذته فخبّأته.

قال معاوية:

حاول ان تأتيني بالكتاب.

وقد استطاع الرجل أن يأخذ الكتاب، فأقبل به على معاوية، فاذا فيه:

*** أعاتكَ هلاّ إذ بخلتِ فلا ترى ***
*** لذي صبوةٍ زلفى لديكِ ولا حقاً ***
*** رددتِ فؤاداً قد تولىّ به الهوى ***
*** وسكّنتِ عيناً لا تملُّ ولا ترقا ***
*** ولكنْ خلبتِ القلبَ بالوعد والمنى ***
*** ولم أرَ يوماً منك جُوداً ولا صدقا ***
*** أتنسين أيامي بربعك مُدنفاً ***
*** صريعاً بأرضِ الشام ذا سقمٍ مُلقى ***

*** وليس صـــديق يــرتـضى لــوصـيــةٍ ***
وأدعو لدائي بالشراب فـلا أُسقى ***

*** فوا كبدي، إذ ليس لي منك مجلس ***
فأشكو الذي بي من هواك وما أَلقى ***

*** رأيـتــك تــزدادين لـلصـبّ غــلظةً ***
فيزداد قلبي كلّ يومٍ لكم عشقا. ***

لّما قرأ معاوية هذه الأبيات، أرسل الى ابنه يزيد رسولا أتى به، فقال له:

إن أبا دهبل كتب بهذه الأبيات الى أختك، فلم تزل باكية الى اليوم، وقد أَفسدها، فما ترى فيه؟

قال يزيد:

عبد من عبيدك يكمن له في بعض الأزقّة فيريحنا منه.

أجابه معاوية:

والله ان امرأ يريد بك ما يريد، ويسمو بك الى ما يسمو، لغير ذي رأي. وأنت قد ضاق ذرعك بكلمة، وقصر فيها باعك حتى أردت أن تقتل رجلاً من قريش، أَوَ ما تعلم أنك إذا ما فعلت ذلك صدقت قوله، وجعلتنا أُحدوثةَ أبداً؟

أجابه يزيد بأن الشاعر قال قصيدة أُخرى تناشدها أهل مكّة، جاء فيها:

*** ألا لا تَقُلْ مهـلاً فقـد ذَهَبَ المَهـلُ ***
وما كلّ من يلحى محُبـاً له عقـلُ ***

*** لقد كان في حولين حالا فلم أَزر ***
*** هوايَ وان خُوّفْتُ عن حبّها شغلُ ***

*** حمى الملك الجبّار عنيّ لقاءَها ***
*** فمن دونها تخشى المتالفُ والقتلُ ***

*** فلا خيرَ من حُبّ يخُاف وبالُهُ ***
*** ولاَ في حبيبٍ لا يكونُ له وَصْلُ ***

*** فوا كبدي اني شُهرتُ بحبّها ***
*** ولم يَكُ فيما بيننا ساعةً بَذْلُ ***

*** ويا عجباً انيّ أُكاتمُ حبّها ***
*** وقد شاع حتى قُطعّت دونها السُبْلُ. ***

بعد أن سمع معاوية هذه الأبيات، قال يزيد:

قد والله فهمت كلّ شيء، ورفّهت عني يا يزيد، فوالله ما كنت آمن ان يكون قد وصل إليها، فأما الآن، وهو يشكو أنه لم يكن بينهما وَصْلٌ ولا بَذْلٌ، فالخَطْبُ يسير.

وحج معاوية في تلك السنة، فلّما انقضت أيام الحجّ كتب أسماء وجوه قريش وأشرافهم وشعرائهم، وكتب اسم أبي دهبل، ثم دعاهم فأجازهم جوائز كثيرة، ولما قبض أبو دهبل جائزته وقام لينصرف، دعا به معاوية إليه، فقال له:

يا أبا دهبل، ما بالي رأيتُ أبا خالد يزيد ابن أمير المؤمنين، عليك ساخطاً في بعض شعر قيل على لسانك. لا تعرض لأبي خالد.

جعل الشاعر يعتذر اليه ويحلف أنه مكذوب عليه، فقال له معاوية:

لا عليك، هل تأهّلت؟

قال أبو دهبل:

لا

قال معاوية:

أيّ بنات عمك أحبّ اليك؟

فقال له: فلانة

قال معاوية:

قد زوّجها أمير المؤمنين وأصدقها ألفي دينار، وأمر لك بألف.

ولّما قبضها أبو دهبل، قال:

إن رأى أمير المؤمنين أن يعفو عمّا مضى، فإن نطقت ببيت في معنى ما بلغه وسبق مني، فقد أبحتُ به دمي، وفلانة التي قد زوّجنيها أمير المؤمنين طالق البتة. فَسُرَّ بذلك معاوية وضمن له رضا يزيد عنه، ووعده بإدرار ما وصله في كل سنة، وانصرف عائداً الى دمشق.

أَسماءُ والمرقّش الأكبر

هو عُمَرُ بنُ مالك بنُ ضُبيعة، أحدُ مَن قال شعراً فَلُقِّبَ به، وهو أحد المتيّمين، كان يهوى ابنة عمّه أسماءَ بنت عوف بن ضُبيعة.

لُقِّبَ المرقّش لقوله:

** الـــدارُ وَحْشٌ والـــرســـوم كـــما **
** رُقِّشَ في ظهر الأديم قَلَمْ. **

عشق المرقش الأكبر أسماء ابنة عمه عوف، فخطبها الى أبيها، فقال له:

لا أزوّجك حتى تُعرَفَ بالبأس.

فانطلق مرقّش الى ملك من الملوك، فكان عنده زماناً ومدحه فأجازه، وأصاب عوفاً زمان شديد، فأتاه رجلٌ من مُراد فأرغبه في المال فزوّجه أسماء على مائة من الإبل، ثم تنحّى عن بني سعد بن مالك.

رجع مرقّش فقال اخوته:

لا تخبروه إلاّ انها ماتت... فلّما قَدِمَ مرقّش عليهم أخبروه ان اسماء ماتت. وبينما هو ذات يوم مضطجع وقد تغطّى بثوبه، وابنا أخيه يلعبان بكعبين لهما، اذ اختصما في كعب، فقال أحدهما:

هذا كعبي أعطانيه أبي من الكبش الذي دفنوه وقالوا: إذا جاء مرقّش أخبرناه انه قبر أسماء.

كشف المرقّش عن رأسه ودعا الغلام، وكان قد ضَنِيَ، فسأله عن الحديث، فأخبره بتزويج المراديّ أسماء، فدعا مرقش وليدةً له وَزوّجَها وذهبوا في طلب المراديّ، وبينا هو في طريقه مرض مرضاً شديداً، فنزلوا كهفاً بأسفل نجران، وهي أرض مراد، فسمع المرقش زوج الوليدة يقول لها:

اتركيه، فقد هلك سُقماً وهلكنا معه ضراً وجوعاً. فجعلتِ الوليدة تبكي من ذلك، فقال لها زوجها:

اظعني فإني تاركك وذاهب.

ولما سمع مرقش قول العقيلي، كتب على مؤخرةِ الرحل أبياتاً قال فيها:

يا صاحبيّ تلبثّا لا تعجلا ... إن الرَواحَ رهينُ ألا تفعلا

يا راكباً إمّا عرضت فبلّغا ... انس بنَ سعدٍ إنْ لقيتَ وحرملا

لله دركّما ودرّ أبيكما ... إن أفلت العبدانِ حتى يُقتلا

مَن مبلغ الأقوام ان مرقّشاً ... أضحى على الأصحاب عبئاً مثقلا

وكأنما ترد السباع بشلوه ... إذ غاب جمع بني ضُبيعة منهلا

وانطلق الغفلّي وامرأته حتى رجعا الى أهلهما فقالا: مات المرقّش. ونظر حرملة الى الرَحْلِ، فجعل يُقلّبه فقرأ الأبيات، فدعاهما وخوّفهما

وامرهما ان يصدقاه ففعلا، فقتلهما بعد ان عرف المكان، فوصل الى المكان فقيل له بينما كان المرقّش في الكهف بصر به راعي زوج اسماء فقال له:

أتستطيع أن تُكلّم امرأة صاحبك أسماء.

قال الراعي إنه لا يدنو منها ولكن جاريتها تأتيه كلّ ليلة ليحلب لها عنزاً فتأتيها بلبنها، فقال المرقش:

خذ خاتمي هذا فاذا حلبت فألقه في اللبن فانها تعرفه، وانك ستصيب به خيراً لم يُصبه راعٍ قطّ أن أنتَ فعلتَ ذلك.

أخذ الراعي الخاتم، ولّما راحت الجارية بالقدح وحلب لها العنز، طرح الخاتم فيه، فانطلقت به الجارية وتركته بين يدي أسماء، فلما سكنت الرغوة أخذته فشربته، فقرع الخاتم ثنيّتها، فتناولته واستضاءت بالنار فعرفته.

قالت اسماء لجاريتها:

ما هذا؟

قالت الجارية:

ما لي به علم.

فأرسلتها الى مولاها فأقبل فزعاً، فقالت له:

ادعُ عبدك راعي غنمك.

حضر الراعي فسألته اسماء:

أين وجدت هذا الخاتم؟

قال:

وجدته مع رجل في موضع كذا، فقال: اطرحه في اللبن الذي

تشربه أسماء، فإنك تصيب به خيراً. وما أدري مَن هو ولقد تركته بآخر رمق.

قال زوجها:

وما هذا الخاتم؟

قالت أسماء:

خاتم مُرقّش فأعجل الساعة في طلبه.

ركب فرسه وحملها على فرس آخر حتى وصلا اليه فاحتملاه الى أهلهما فمات عند أسماء.

قال المرقش قبل موته:

*** سـرى نحـوي خيـال من سُليمى ***
*** فـأرّقـني وأصـحـابي جُـحـودُ ***

*** فبـتُّ أُديـر أمـري كـلّ حـالٍ ***
*** وأذكـرُ أهـلهـا وَهُـمُ بـعـيـدُ ***

*** عـلى أن قـد سـما طـرفي لـنـارٍ ***
*** يشبُّ لهـا بـذي الـدفلى وقـودُ ***

*** حـواليـهـا مهـاً بيضُ الـتـراقـي ***
*** وآرامٌ وغـزلانٌ رقـودُ ***

*** نـواعـم لا تُـعـالـجُ بـؤسَ عيشٍ ***
*** أوانس لا تـروحُ ولا تـرودُ ***

*** يَـرُحْـنَ مـعـاً بـطاءَ المَـشْيِ وِداً ***
*** عـليهـنّ المجـاسِـدُ والـبـرودُ ***

⁂ سكنَّ ببلدة وسكنتُ أخرى ⁂
⁂ وَقُطِّعَتِ المواثقُ والعهودُ ⁂

⁂ فمابالي أَفي ويخانُ عهدي ⁂
⁂ وما بالي أُصاد ولا أصيدُ ⁂

⁂ وربَّ أسيلةِ الخدّين بكرٍ ⁂
⁂ مُنعّمة لها فَرعٌ وَجِيدُ ⁂

⁂ وذو أَشَرٍ شتيتُ النَبْتِ عَذْبٌ ⁂
⁂ نقيُّ اللون برّاقٌ بُرودُ ⁂

⁂ لهوتُ بها زماناً في شبابي ⁂
⁂ وزانتها النجائب والقصيدُ ⁂

⁂ أُناسٌ كلّما أَخلفتُ وصلاً ⁂
⁂ عناني منهمْ وصْلٌ جديدُ. ⁂

أُم جعفر والأحوص

الأحوص هو علي الأنصاري، وُلِدَ في المدينة، وتوفي في دمشق. شاعر حجازيّ قيل إنه كان يُشبّب بالنساء فَنُفِيَ وسُجِنَ، كما كان لاذعَ الهجاء يهابه الناس لذلك.

* * *

أرسلتْ أُمُّ جعفرٍ: لا تزرنا ... ليت شعري بالغيب من ذا دهاها

أأتاها مُحُرِّشٌ بنميمٍ ... كاذبٍ ما أرادَ إلاّ رَدَاها

* * *

لقد مُنِعَتْ معروفَها أُمُّ جعفرٍ ... وإني الى معروفها لفقيرُ

وقد أَنكرت بعد اعترافٍ زيارتي ... وقد وَغِرَتْ فيها عليّ صدورُ

أَدورُ ولولا أن أرى أُمَّ جعفرٍ ... بأبياتكم ما درتُ حيث أَدورُ

** أَزورُ البيـوتَ الـلاّصقـاتِ ببيتهـا **
** وقلبيَ في البيـتِ الـذي لا أَزورُ **

** ومـا كـنتُ زوَّاراً ولـكنّ ذا الهـوى **
** إذ لم يَـزُرْ لا بـدَّ أَنْ سيـزورُ. **

* * *

لما أكثر الأحوص التشبيبَ بأُمّ جعفر، وشاع شعره فيها، أوعده أخوها أيمن وتهدّده، فلم ينتهِ الشاعر، فـاستعدى عليه عمر بن عبد العزيز، فربطهما في حبل ودفع اليهما سوطين، وقال لهما: تجالدا.

غضب أيمن، وقد استطاع الأحوص التملّص من الحبل وهرب، فتبعه أيمن حتى فاته الأحوص هرباً. . .

قال السائب بن عمر بن عوف يُعيرّ الأحوص بفراره ويُعارضه في هذه الأبيات:

** لقـد مَنَعَ المعـروفَ من أُمِّ جعفـرٍ **
** أخـو ثقـةٍ عنـد الجِلادِ صَبُـورُ **

** عـلاكَ بمتنِ السـوط حـتى اتّقيتـه **
** بـأصفَـر من مـاءِ الصّفَـاقِ يفـورُ **

فأجابه الشاعر الأحوص:

** إذا أنـا لم أغـفـرْ لأيمـن ذَنْـبَـهُ **
** فمَن ذا الذي يعفو له ذنبه بعدي **

** أُريـد انـتقـامَ الـذنـب ثم تَـرُدُّني **
** يـدٌ لأُدانيـهِ مُبَـاركَـةٌ عنـدي. **

** وإني ليدعوني هوى أمّ جعفرٍ **
** وَجَارَاتِهَا من ساعةٍ فأجيبُ **

** وإني لآتي البيتَ ما إنْ أُحِبُّهُ **
** وأُكثر هجرَ البيتِ وهو حبيبُ **

** وأُغضي على أشياءَ منكم تسوءُني **
** وأُدعى الى ما سرّكُمْ فأُجيبُ **

** هَبيني امرأً إمَّا بريئاً ظَلَمْتِه **
** وإمَّا مُسِيئاً مُذْنباً فيتوبُ **

** أَبُثُّكِ ما أَلقى وفي القلب حاجةٌ **
** لها بين جلدي والعظام دبيبُ **

** لكِ اللّهُ إني واصلٌ ما وصلتِني **
** وَمُثْنٍ بما اوليتِني وَمُثِيبُ **

** وآخُذُ ما أعطيتِ صفواً وإنني **
** لأَزْوَرُّ عمّا تكرهينَ هَيُوبُ **

** ولا تتركي نفسي شَعَاعاً فإنها **
** من الحزنِ قد كادتْ عليك تذوبُ. **

* * *

- السلام عليكم، يا قوم.

- السلام عليك، السلام عليك.

التفتت الى الأحوص وقالت له:

- أعطني يا سيدي، ثمن الأغنام التي ابتعتَها مني.

الأحوص: أنا؟ أنا ما ابتعتُ منك شيئاً.

- بلى، كيف تنفي ذلك؟!

الأحوص: والله، ما ابتعتُ منها شيئاً، يا قوم!

- يا قوم، كلّموه... فأنا امرأةٌ بي حاجةٌ وفاقةٌ وعوز...

أحدهم: يا أخا العرب، اقضِ المرأة حقّها!

الأحوص: والله ما ابتعت منها غنمًا، وما أعرفها، ولا رأيتها قطّ.

أم جعفر: صدقت يا أحوص، يا عدوّ الله، ما لي حقّ ولا تعرفني، وأَنت قد حلفتَ على ذلك... وهؤلاء قومك ومن حضر من الناس قد سمعوك تُقسِمُ انك لا تعرفني... وأنتَ تقول في شعرك: قلتلأمّ جعفر وقالت لي أُمّ جعفر... فأنا أُمُّ جعفر!!

ورد وديك الجنّ

⁂ أنـظرْ إلى شمس القصـور وبـدرهـا ⁂
⁂ والى خُزَامـاهـا وبهجـةِ زهـرهـا ⁂

⁂ لم تَبْـل عينُـكَ أبيضـاً في إسـودٍ ⁂
⁂ جَمَعَ الجمالَ كـوجهها في شَعـرها ⁂

⁂ ورديّـة الـوجنـات يخَتبـرُ أسمَـهـا ⁂
⁂ من نَعْتِهَـا مَن لا يحُيطُ بِخُبْرِهَـا ⁂

⁂ وتمـايلتْ فضـحكـتُ من أردافـهـا ⁂
⁂ عجبـاً، ولكنيّ بكيتُ لخصـرهـا ⁂

⁂ تَسقِيـكَ كـأس مُـدَامـةٍ من كفّهـا ⁂
⁂ ورديّـةً، ومـدامـةً من طـرفهـا. ⁂

❋ ❋ ❋

تلك هي ورد، الحسناء الحمصية التي اشتهر بها ديك الجنّ حتى غلبت عليه، وذهبت به.

وراح الزوجان يتمتّعان بمباهج الحياة ونعماها.

تُرى، فات الشاعر أن الأيامَ غرّارةٌ، وأن للحياة وجهاً آخر، وأن في الدنيا أشواكاً وليست كلّها أورادا؟

وبينما كان الشاعر يُودّع زوجه، إذ اضطرّ للسفر بعد أن أعسر واختلّت حاله، أخذت ورد تبكي على فراق زوجها كأنما تشعر أن هذا الفراق سيجلب لهما الشرّ!

وكان لديك الجنّ ابن عم يُكنى أبا الطيّب، هجاه الشاعر هجاء مريراً لتدخّله في أموره، فسكت أبو الطيّب على مضض، يتحينّ الفرص لينتقم منه.

وهل هناك خير من هذا الظرف ليتّهم ورداً بما ليست هي فيه؟!

راح أبو الطيّب يُذِيع أن ورداً تهوى غلاماً له، وشاع ذلك الخبر حتى أتى ديك الجنّ. واذا بابن عمّه يستقبله على باب المدينة مُعَنِّفاً له على تمسكّه بتلك المرأة بعدما شاع عنها، وأشار عليه بطلاقها، وأعلمه أنها غدرته في مغيبه، ودسّ الغلام الذي رماها به وقال له:

إذا قَدِمَ ديك الجنّ ودخل منزله، فقف على بابه كأنك لم تعلم بقدومه ونادِ: يا ورد، فاذا قالت: مَن أنت؟ قل لها: أنا فلان.

فقال لها ديك الجن:

يا خائنة، زعمت انك لا تعرفين من هذا شيئاً، واخترط سيفه فضربها به.

* * *

لك نفسٌ مواتيه	والمنايا مُغاديه
أيها القلب لا تَعُدْ	هوى البيض ثانيه
ليس بَرْقٌ يكون	أخلبَ من برقِ غانيه

خُنتِ سراً من لم
يَخُنْكِ، فَموتي علانيه.

* * *

ليتني لم أكنْ لعطفكِ نلتُ
والى ذلك الوصال وصلتُ
قال ذو الجهل قد حَلُمْتُ ولا
أَعلم أني حلمتُ حتى جهلتُ
سوف آسى طول الحياةِ
وأبكيك على ما فعلتِ لا ما فعلتُ

* * *

ولكنّ الوشاية الكاذبة، ما لبثت ان انكشفت، وأدرك الشاعر سوء تصرّفه، وراحت صور ورد تتراءى له، فهي معه تارةً على الميماس، وتارةً على العاصي، ومرّت في ذهنه أيامه الحلوة ولياليه الحالمة، فوهن وخارت قواه، وأحسّ أن الحياة بعد ورد لم يَعُدْ لها شأن، فثوى على قبرها حزيناً شارد الفكر والنظر، يُردّد هذه الأبيات:

يا طلعةً طلع الحِمَامُ عليها
وجنى لها ثمرَ الردى بيديها
مكنّتُ سيفي في مجالِ وشاحها
ومدامعي تجري على خدّيها
ما كان قَتْلِيْهَا لأني لم أَكنْ
أَبكي إذا مرَّ النسيمُ عليها

*** لكنْ ضننتُ على العيونِ بلحظها ***
*** وأَنِفْتُ من نَظَرِ الحسودِ إليها... ***

عنان والشعراء

أزدانت حلقات اللهو في العهد العبّاسي بشعراء مفكرين كأبي نواس ووالبة بن الحَبَاب وحَمّاد عجرد، وبجوارٍ بارعات الذوق والجمال، شَغِفَاتٍ بالأدب والأدباء كجنان. . . جوار مختصّات بفنّ اللهو، عارفات بالشِعر والغناء والرقص والعزف والدلّ. . . غلاميّات رشيقات عطرات أين من فنهنّ المُغري، عِفَّةُ بثينة وعبلة، وأين النُؤي والوتد، منَ الحدائق وأحواض الماء والقصور. . . عدا مَن اشتاق الى ألوان الماضي والى تقويم لسانه، فليس عليه إلاّ أن يتبدَّى، اي يذهب الى البادية، فيرى فتياتها الرعابيب اللواتي ما عرفن مَضْغَ الكلام ولا صَبْغَ الحواجيب. . .

جيلٌ مُولَّدٌ له آفاقُ أشواقه وتفكيره، وأدبٌ مولد له تلاوينُهُ وله من الأوزان رشيقها الصالح للغناء، ومن المعاني رقّة وعمق، ومن الألفاظ جِدّةٌ ولِينٌ.

ليس الغزل في هذا العهد من نوعِ الغزل الذي كان سائداً في العهدين الجاهلي والأموي، عند عنترة مثلاً وابن معمر، ولا حتى عند امرىء القيس وابن ابي ربيعة، فهؤلاء كانت المرأة عند بعضهم مثالاً للحبّ والجمال، وعند البعض الآخر مثالاً للجمال وحسب، لكنها انحدرت في العهد العبّاسي عن عَرْشَيْهَا، وأمست وسيلة من وسائل اللذة.

إنه غَزَلٌ أقرب شيء الى الكذب، هو غزل بالجواري يمتدّ مُنحرفاً حتى التبذّل. وهذا مثل عن شعراء خلعاء يتنادون الى مجلس لهو، فتدعوهم «عنان» الى بيتها حيث الشراب حلا وحراماً.

قال داود بن رزين:

*** قوموا لمنزل لَهْوٍ ***
*** وظلّ بيت كنينِ ***

*** فيه من الورد ***
*** والنرجس والياسمين ***

*** وقينةٌ ذاتُ غنجٍ ***
*** وذاتُ عقلٍ رصينِ ***

*** تشدو بكلِّ طريفٍ ***
*** من مُحكمِ ابنِ رزينِ ***

وقال الخليع:

*** إلى الخليعِ فقوموا ***
*** الى شرابِ الخليعِ ***

*** الى شراب لذيذٍ ***
*** وأكْلِ جديٍ رضيعِ ***

*** ونيل أحوى رخيمٍ ***
*** بالخندريس صريعِ ***

*** في روضة جادها ***
*** صوب غاديات الربيع ***

وقال عمر الورّاق:

** عُـوجـوا الى بـيـتِ عـمـرِو **
** الى سـمـاعٍ وخمـرِ **

** ونـاشـجـاتٍ عـلـيـنـا **
** تُـطاع في أيِّ أمـرِ **

** فـهـاك أحـلى وأشـهـى **
** مـن صـيـدِ بـازٍ وصـقـرِ **

** هـذا، ولـيس عـلـيـكـم **
** أُولى ولا وقـت عـصـرِ **

وقال الحسين الخيّاط:

** قـضـتْ عـنـانُ عـلـيـنـا **
** بـأن نـزورَ حـسـيـنـا **

** وان نـقـرّ لـديـه **
** بـالـلهـو والـقـصـف عـيـنـا **

** فـما رأيـنـا كـظرف **
** الحـسـين فـيـما رأيـنـا **

** قـد قـرّب الله زيـنـا **
** مـنـه، وَبَـاعَـدَ شَـيـنـا **

وقالت عنانَ:

** مـهـلاً أُفـدّيـكَ مـهـلا **
** عـنـانُ أَحـرى وأَولى **

** بـأن تـنـالَ لـديهـا **
** أشـهـى الـنـعـيـم وأَحـلى **

** فـإنَّ عـنـدي حـرامـاً **
** مـن الـشـرابِ وَحـلاَّ **

** لا تـطـمـعـوا في سـوائـي **
** مـن الـبـريّـةِ كـلاّ **

** يـا اخـوتي خـبّـروني **
** أَجـاز حُـكـمِـيَ أَم لا؟ **

ولاَّدة وابن زيدون

وُلِدَ الشاعر الأندلسي أبو الوليد أحمد بن عبد الله المخزومي، المعروف بابن زيدون، في قرطبة، العام ١٠٠٣م. وتوفي في اشبيلية العام ١٠٧٠م.

درس على أبيه وعلماء قرطبة وأدبائها.

أحبَّ ابن زيدون، ولاَّدة بنت المستكفي، الشاعرة التي اشتهرت بمنتداها الأدبي، وبادلته ولاَّدة الحبّ، لكنّ ابن عبدوس، منافس ابن زيدون في السياسة، راح يُنافسه في الحبّ أيضاً، محاولاً استمالة ولاّدة اليه، وكسب ودّها.

وحدثت جفوة بين ولاَّدة وابن زيدون، استغلّها ابن عبدوس، ولكنها زالت وعاد الصفاء الى قلب العاشقَين الشاعرين، فكتب ابن زيدون رسالة هزليّة على لسان ولاَّدة، يهزأ فيها بابن عبدوس ويفخر عليه.

وجعل ابن عبدوس يتحينّ الفُرَصَ للأخْذِ بالثأر، وتشاء المصادفات ان يُسجن ابن زيدون، وكان قد عُرِفَ بذي الوزارتين، فذهب ابن عبدوس الى ولاَّدة طالباً ودّها وحبّها، فلاقى عندها قبولاً.

ويتألم ابن زيدون ويتحسّر على عهده السابق مع ولاَّدة فيتنَّهدُ لها أرقَّ الشعر شاكياً مُستعطفاً مُذكِراً بأيام السعادة والهناءة، لافةً إيّاها الى

أنه على العهد مُقِيم، ومن أشهر ذلك الشعر، قصيدته الموسومة: «أضحى التنائي». قال فيها:

*** أضحى التنائي بديلاً من تدانينا ***
*** وناب عن طيبِ لُقيانا تجافينا ***

*** بِنْتُمْ وبِنَّا فما ابتلَّتْ جوانحنا ***
*** شوقاً اليكم ولا جفَّتْ مآقينا ***

*** يكاد حين تُناجيكم ضمائرنا ***
*** يقضي علينا الأَسى لولا تأسّينا ***

*** حالتْ لفقدِكُمُ أيامنا فغدتْ ***
*** سوداً وكانت بِكُمْ بيضاً ليالينا ***

*** إذْ جانبُ العيش طَلْقٌ من تألّفنا ***
*** ومَوردُ اللهوِ صافٍ من تصافينا ***

*** وإذْ هصرنا غصونَ الأنس دانيةً ***
*** قطوفُهَا فجنينا منه ما شِينا ***

*** لِيُسْقَ عهدُكُمُ، عهدُ السرورِ، فما ***
*** كنتم لأرواحنا إلاَّ رياحينا ***

*** مَن مُبلِغُ الملبسينا بانتزاحِهِم ***
*** حُزْناً معَ الدهرِ لا يَبلى ويُبلينا ***

*** ان الزمان الذي مازال يُضحكنا ***
*** أُنساً بقربكُمُ قد عاد يُبكينا ***

ما حقّنا ان تقرّوا عين ذي حسدٍ
بنا، ولا ان تسرُّوا كاشحاً فينا

غِيظَ العِدَى من تساقينا الهوى فدعَوا
بأن نَغصَّ فقال الدهر: آمينا

فانحلَّ ما كان معقوداً بأَنفسنا
وانبتَّ ما كان موصولاً بأيدينا

بالأمسِ كنَّا وما يُخشى تفرُّقُنَا
واليومَ نحن وما يُرجى تَلاقِينا

لم نعتقدْ بعدكم إلاَّ الوفاءَ لكم
رأياً، ولم نتقلَّدْ غيرَهُ دِينا

لا تحسبوا نأيَكُمْ عنّا يُغيّرنا
انْ طالما غيَّرَ النأيُ المُحبّينا

والله ما طلبتْ أهواؤنا بدلاً
منكم ولا انصرفت عنكم أمانينا

ولا استفدنا خليلاً عنك يَشغلنا
ولا اتخّذنا بديلاً عنكِ يُسلينا

يا ساريَ البرقِ غادِ القصرَ فاسقِ به
مَن كان صِرفَ الهوى والودّ يَسقينا

ويا نسيمَ الصَّبا بَلّغْ تحيّتنا
مَن لو على البُعدِ حيًّا كان يحُيينا

كَـأننـا لم نَبِتْ والـوصـل ثـالثنـا
والسَّعدُ قد غضَّ من أجفانِ واشِينا

سِـرَّانِ في خـاطـرِ الـظلماءِ تَكتُمُنَـا
حتى يكـادَ لسانُ الصُّبْـحِ يُفشينـا

لا أكؤسُ الـراحِ تُبدي من شمـائلنا
سيـما ارتيـاحٍ ولا الأوتـار تُلهينـا

دُومي على العهد، مـا دمنا، محـافِظَةً
فـالحُرُّ مَن دانَ انصـافـاً كـما دِينَـا

أولى وفـاءً وإنْ لم تـبـذلي صـلةً
فـالـذِّكْرُ يُقنعنـا والـطَّيفُ يُبكينـا

ويـا حـيـاةً تمـلّيـنـا بـزهـرتهـا
مُنىً ضُـروبـاً ولـذَّاتٍ أفـانينـا

ويـا نعيـماً خـطرنـا من غضـارتـه
في وشْيِ نُعمى سحبنـا ذَيلَهُ حينا

لسنـا نُسمّيـكِ إجـلالاً وتكـرمـةً
وَقَـدْرُكِ المُعتلى عن ذاك، يُغنينـا

إذا انفـردتِ ومـا شُوركتِ في صفـةٍ
فحسبنـا الوصفُ إيضـاحـاً وتبيينـا

يـا جنَّـةَ الخُلْدِ أَبـدلنـا بسلسلهـا
والكـوثرِ العـذبِ زَقُّـومـاً وَغِسْلِينَـا

*** إنْ كان قد عزَّ في الدنيا اللقاءُ ففي ***
*** مَـواقفِ الحَشْـرِ نلقـاكم ويكفينـا ***

*** عليـكِ منيّ سـلامُ الله مـا بقيـتْ ***
*** صبـابـةٌ منـكِ نُخفيهـا فتُخفينـا. ***

حُبيشة وابن علقمة

خرج عبد الله بن علقمة، ذات يوم، مع أُمّه، وهو فتى يافع، لزيارة جارة لهما وكانت للجارة بنت يُقال لها حُبيشة، فلّما رآها ابن علقمة أَعجبته أيّما إعجاب، فانصرف تاركاً أُمّه عند الجارة، فلبثت هناك يومين كاملين، ولما عاد ليرجعها الى البيت، وجد حُبيشة قد زُيّنَتْ لحضورِ مناسبةٍ في الحيّ، فازداد عبد الله بها عَجَباً، ثم أَخذ أمّه ومشى معها وكانت السماء تُمطر، فأنشأ يقول:

*** وما أَدري بلى إنيّ لأدري ***
*** أَصوبُ القطرِ أحسنُ أَم حُبيشُ ***
*** حُبيشةُ والذي خلق الهدايا ***
*** وما إن عندها للصبِّ عيشُ ***

سمعت ذلك أُم عبد الله، فتظاهرتْ بعدم الاكتراث، وبعد قليل التقيا بظبية على ربوة، فقال ابن علقمة:

*** يا أُمّتا خبّريني غيرَ كاذبةٍ ***
*** وما يُريدُ مَسُولُ الحقِّ بالكَذِبِ ***
*** أَتلكَ أَحسنُ أَمْ ظبيٌ برابيةٍ ***
*** لا بل حُبيشةُ في عيني وفي أَرَبي. ***

زَجرتْهُ أُمُّهُ وقالتْ له:

ما أَنتَ وهذا القول يا عبد الله، إني مزوّجتك ابنةَ عمّك، فهي أجملُ من تلك.

ولدى وصولهما المنزلَ اتّصلتْ أُمّ عبد الله بامرأةِ عمّ الشاعر، فأخبرتها القصة، وقالت لها: «زيّني ابنتك له»، ففعلت، ولما دُعي عبد الله ورأى ابنة عمّه، أطرق ولم يقل شيئاً، فقالت له أُمّه: «أيهما الآن أحسن؟» فقال ابن علقمة:

** إذا غُيِّبَتْ عنيّ حُبيشةُ مرةً **
** من الدهرِ لم أملِك عزاءً ولا صَبرا **
** كأَنَّ الحشى حَرُّ السّعير يَحُشُّهُ **
** وَقُودُ الغَضَى والقلبُ مُضْطَرِمٌ جمَرا **

وجعل عبد الله بن علقمة يُراسل حُبيشة وتُراسله حتى أحبّته كما أحبّها، وراح الشاعر يستوحي الشعر ويتنهّده صباحَ مساءَ، ومن ذلك الشعر، قوله:

** حُبيشةُ هل جَدّي وجَدُّكِ جامعٌ **
** بشملِكُمُ شملي وأهلِكُمُ أهلي **
** وهل أنا مُلْتَفٌّ بثوبكِ مَرةً **
** بصحراءَ بين الأَثلتينِ الى النخلِ **
** ومُرتشِفٌ من ريقِ ثغركِ مرةً **
** كَراحٍ وَمِسْكٍ خالطا ضَرَبَ النحلِ **

ولّما بلغ هذا الشعرُ أهلَ حُبيشة، حجبوها عن الشاعر، وقالوا لها: إذا أتاك غداً قولي له: «نَشدتُكَ الله إن كنتَ أَحببتَنِي فما على الارضِ شيءٌ أبغضُ إليّ منك».

ولمّا جاء عبد الله تَخَفَّى أهلُ حُبيشة، ودمعتْ عينا الحبيبة، والتفتتْ الى حيث أَهلُهَا، فعرف الشاعرُ بالأمر، فَرجَع وقد بَلَغَهُ فيما بعد، ما أَمروها به أن تقولَهُ، فأنشأَ يُردّد هذه الأبيات:

*** فلو قلتِ ما قالوا لَزِدْتُ بكم جوى ***
*** علَى أنه لم يبقَ سِــترٌ ولا صَبْـرُ ***

*** ولم يــكُ حُبّي عن نــوالٍ بــذلتُــهُ ***
*** فَيُسْلِيَنِي عنــه التجنُّبُ والهَجْــرُ ***

*** وما أنسَ مِ الأشياءِ لا أنسَ دمعَهـا ***
*** ونَــظْرَتَهَــا حتى يُغَيّبَنِي القَبْــرُ. ***

* * *

ولموت عبد الله بن علقمة قصة فقد قيل انه وقع أسيراً في أيدي أعدائه، فَرُبِطَ بحبل وقُدّم للقتل، فقال لهم:

«هل لكم في خير؟ أَنزلوني أسفل الوادي واقتلوني هناك...»

فأجيب الى رغبته، فنادى بأعلى صوته: **«أسلمي حُبيش عند نفاد العيش»**.

فأقبلت اليه جاريةٌ بيضاء حُسَّانة وقالت: «وأنت فاسلم على كثرة الأعداء وشدّة البلاء».

فقال:

«سلام عليك دهرا وإن بقيت عصرا»

فقالت:

«وأنت سلام عليك عشرا، وشفعا ووترا، وثلاثة تَتْرَى».

فقال الشاعر:

** إن يقتلوني يا حُبيشُ فلم يَدَعْ ** هواكِ لهم منيّ سوى غُلَّةِ الصَّدْرِ **

** فأنتِ التي أخليتِ لحميَ من دمي ** وعظمي وأسبلتِ الدموعَ على نحري. **

ثم ضُرِبَ عنقه فتقحّمتْ الجارية من خدرها حتى أهوت نحوه ومازالت تضرب نفسها حتى ماتت مكانها.

عُتْبَةُ وأَبو العتاهية

كان الشاعر أبو العتاهية يُحِبّ جاريةً اسمها عُتبة، وكانت عُتبة في قَصرِ المهدي، وكان للمهدي مغنٍّ مقرّب اليه اسمه يزيد حوراء، ويزيد صديق أبي العتاهية، فسأل الشاعرُ المغني أن يُكلّم المهدي في أمر عُتبة، فقال له: «لا يمُكنني الكلام يا أبا العتاهية، ولكنْ قُل شِعراً أُغنيه به»، فقال الشاعر:

** نفسي بشيءٍ من الدنيا مُعَلَّقَةٌ **
** اللهُ والقائمُ المَهديُّ يَكفيها **
** إنيّ لأيأسُ منها ثم يُطْمِعُنِي **
** فيها احتقارُكَ للدنيّا وما فيها. **

لحنّ يزيد حوراء أبيات أبي العتاهية وغنّاها أمام المهدي، فقال له: «ما هذا؟» فأخبره خبَر أبي العتاهية، فقال: «ننظر فيما سأل». ومضى شهر فجاء أبو العتاهية الى يزيد حوراء يسأله أن يذكره للمهديّ، فقال له: إنْ أحببتَ ذلك فقل شِعراً تحُرّكه به وتُذكّره وَعْدَهُ حتى أُغنيّه به، فقال:

** ليت شِعري ما عندكم ليت شِعري **
** فلقد أُخِّرَ الجوابُ لأمرِ **

ما جـوابٌ أَولى بـكـلِّ جميـل ** من جـوابٍ يُـرَدُّ من بعـد شَهـرِ

غنىّ يزيدُ المهديَّ بهذين البيتين، فقال: «عليّ بعتبة»، فأُحضرت له، فقال: «إنَّ أبا العتاهية كلّمني فيك، فما تقولين، وعندي لك وله كل ما تُحبّان وما لا تبلغه أمانيكما؟».

فقالت عتبة:

«قدِ علم أمير المؤمنين ما أَوجب الله عليّ من حقّ مولاتي، وأُريد أن أذكُرَ هذا لها».

وعادت عتبة الى مولاتها، ومضت أَيام فجاء أبو العتاهية يسأل يزيد حوراء معاودة المهدي ومعه هذه الأَبيات:

ولقـد تنسّمـتُ الـريـاحَ لحـاجتي ** فـاذا لهـا مـن راحتيـك نسيمُ

أعلقت نفسي من رجـائـك مـا لـه ** عَـنَـقٌ اليـك يَخُبُّ بي ورسِـيمُ

ورميتُ نحـو سماءِ جُـودِكَ نـاظـري ** أَرعـى مخـايـلَ بَـرْقِهَـا وأَشِـيمُ

ولـربمـا استيـأسـتُ ثم أَقـول لا ** إنّ الـذي وعـد النجـاحَ كـريـمُ

لحّـن يزيد حوراء هذه الأبيات وغنّاها المهديَّ فأرسل في طلب عتبة، فحضرت فسألها: «ما صنعتِ؟».

قالت: «ذكرتُ الأمر لمولاتي فكرهته وأبتْهُ، فليفعل أمير المؤمنين ما يُريد».

قال المهدي:

«ما كنتُ لأفعل شيئاً تكرهه» -

علم الشاعر بالأمر: فقال:

*** قـطعتُ منـكِ حبـائـلَ الآمـالِ ***
*** وأَرحتُ من حِـلٍّ ومن تَـرْحـالِ ***
*** مـا كـان أَشـأَمَ إذ رجـاؤُك قـاتـلي ***
*** وبنـاتُ وَعْـدِك يَعـتلجْـنَ ببـالي ***
*** ولئن طمعتُ لَـرُبَّ بَـرْقَـةِ خُـلَّبٍ ***
*** مـالتْ بذي طَمَـعٍ ولمعةِ آلِ. ***

ليلى والبرّاق

أَحبّت ليلى بنت لكيز بن مرة، ابن عمّها البرّاق بن روحان، وكانت تُلقّب بالعفيفة لصونها نفسها.

بادلها البرّاق عاطفتها وأَرادا أن يتزوّجا ، ولكنّ أَهلها مانعوا في ذلك، وخطّبها أَبوها لسواه، فخطفها ابن كسرى بغية زواجها، ولكنها رفضت واستصرخت البرّاق ابن عمّها واخوتها وقومها، قائلة:

⁂ لـيـت لـلـبـرّاق عـيـنـاً فـتـرى ⁂
⁂ مـا أُقـاسـي مـن بـلاء وعـنـا ⁂

⁂ واحـذروا الـعـار عـلى أَعقـابـكـم ⁂
⁂ وعليكم مـا حييتم في الـورى. ⁂

* * *

وما وصلت صرخة ليلى آذان البرّاق وقومها، حتى هجموا على الأَعداء. واستطاع البرّاق انتزاع حبيبته من أَيدي غاصبيها، واستحقّ أَن يتزوّجها، وقد عاشا حياةً سعيدة.

فضل وابن الجهم

فضل، شاعرة نشأت في البصرة، في عصر المتوكل، وكان عصر الشعر الساحر، والديباجة الأنيقة، والأسلوب الغنائي الجميل. ولم تُقصّر فضل عن الشعراء اللامعين في ذلك العهد، وكثيراً ما تقدّمتهم في الشعر الغنائي الذي يعتمد على الرقّة والتأثير. ومن شعرها:

لأكتمنَّ الذي بالقلب من حُرَقٍ
حتى أموت، ولم يعلم به الناسُ

ولا يُقال شكا مَن كان يعشقه
إنّ الشكاةَ لمن تهوى هي الياسُ

ولا أبوح بشيء كنتُ أكتمهُ
عند الجلوس إذا ما دارتِ الكاسُ.

* * *

وكانت فضل سريعة الخاطر، نبيهة، طريفة، يُطارحها الشعراء فتجيز بسرعة ما يعرض عليها، وقد طارحها مرة علي بن الجهم في حضرة المتوكل، قائلاً:

لاذ بها يشتكي اليها
فلمْ يجد عندها ملاذا.

فقالت فضل على الفور:

⁂ ولم يـزل ضـارعـاً الـيـهـا ⁂
⁂ تهـطل أجـفـانـه رذاذا ⁂

⁂ فـعـاتـبـوه، فـزاد عـشـقـاً، ⁂
⁂ فـمـات وجـداً، فكـان مـاذا؟ ⁂

* * *

وأَلقى عليها هذا البيت:

⁂ ومـسـتـفتـح بـاب الـبـلاء بـنـظرة ⁂
⁂ تـزوّد منهـا قلبـه حسـرةَ الـدهـرِ ⁂

فقالت فضل:

⁂ فـوالله مـا يـدري أَتـدري بمـا جَنَتْ ⁂
⁂ على قلبه، أَم أَهلكتهُ، ولم تدري؟ ⁂

الرُّميكيّة وابن عبَّاد

يُقال: بدأ الشعر بملك، وانتهى بملك. والمقصود بدأته بامرىء القيس، ونهايته بالملك المعتمد بن عبَّاد. ولعلَّ هذا الملك الأندلسيَّ يُشبه المشرقيَّ أَبا فراسَ بمعاناة سجنٍ وآلامٍ بعد عزّ.

تغلب ابن تاشفين على ابن عبَّاد، وحمله أسيراً الى أَغمات، فتجمهر شعبه على ضفّة النهر الكبير حزيناً، وقد شقَّت الجيوب حزناً وانفجرت الدموع ينابيع غزيرة، ولاسيما ما كان من النساء تفجّعاً على هذا الملك الشاعر الطيّب.

* * *

من شعر ابن عبَّاد وهو في سجنه بأغمات:

فيـما مضـى كنت بالأَعيـاد مسـرورا
فجاءَكَ العيد في أَغمـاتَ مأسـورا

تـرى بنـاتِـكَ في الأَطمـار جـائعـةً
يغزلن للناس، مـا يملكن قِطميـرا

بـرزنَ نحـوكَ للتسليـم خـاشعـةً
أبصارهـنَّ، حسيـراتٍ مكـاسيـرا

** يطأنَ في الطين، والأقدام حافيةٌ **
** كأنها لم تطأْ مِسكاً وكافورا **

** لا خدَّ إلاَّ تشكَّى الجدبَ ظاهرُهُ **
** وليس إلاَّ معَ الأنفاس ممطورا **

** أفطرتَ في العيد، لا عادت إساءَتُهُ **
** وكان فِطرُكَ للأكباد تفطيرا **

** قد كان دهرك إنْ تأمْرهُ ممتثلاً **
** فردّكَ الدهرُ منهيّاً ومأمورا **

** مَن بات بعدك في ملك يُسَرُّ به، **
** فإنما بات بالأحلامِ مغرورا! **

* * *

أَو قوله:

** بكيتُ الى سربِ القطا إذ مررنَ بي **
** سوارحَ، لا سجنٌ يعوقُ ولا كَبْلُ **

** ولم يكُ، واللهِ المعيدِ، حسادةً **
** ولكن حنيناً أَن شكلي لها شكلُ **

** فأسرحُ، لا شملي صديعٌ ولا الحشا **
** وجيعٌ، ولا عيناي يبكيهما ثُكْلُ **

** هنيئاً لها ان لم يُفرَّقْ جميعها، **
** ولا ذاق منها البُعد عن أهلها أَهلُ **

** وإن لم تبت مثلي تطير قلوبها **
** إذا اهتزَّ بابُ السجن أو صلصل القفلُ **

** لنفسي الى لُقيا الحِمام تشوُّقٌ **
** سوايَ يحب العيش في ساقه جِحْلُ **

** ألا عَصَمَ الله القطا في فراخها **
** فإنَّ فراخي خانها الماءُ والظلُّ. **

* * *

ومن قول ابن عبَّاد، أيام عزّه، باعتماد الرميكيّة، التي أَحبَّها مدى حياته:

** كتبتُ وعندي من فراقك ما عندي **
** وفي كبدي ما فيه من لوعة الوجدِ **

** ولولا طلاب المجد زرتكِ طيَّه **
** عميداً كما زار الندى ورق الوردِ **

* * *

أَو قوله:

** أَنا في عذاب من فراقك **
** نشوان من خمر اشتياقك **

** صبٌّ الفؤاد الى لقائك **
** وارتشافك واعتناقك **

** هـذي جـفـوني أَقـسـمـت **
** لا تـلـتـقـي مـا لم تـلاقـك **

** فَـصِـلي جمـيـل الـظن بي **
** وثـقي فـقـلبـي في وثـاقـك. **

* * *

ولابن عبَّاد مع اعتماد الرميكيّة أَخبار لا أَلطف ولا أَبهج. منها أَنهما زارا ذات يوم قرطبة في الشتاء، فأدهش اعتماد وخلب لبَّها، منظرُ الثلج على أَغصان الشجر، فتنهدّت متمنيةً هذا البهاء لأَشبيلية التي لا تعرف الثلج. وحين عادا الى أَشبيلية، عمد الشاعر الى غرس مساحة بأشجار اللوز، وإبَّان الازهرار، دعا ابن عبَّاد عروس شعره، الى القصر، وعندما أَطلَّت على الشرفة، طارت فرحاً لمرأى الأَزهار على الأَغصان، وقد أَعاد لها ابن عبَّاد ما شغفها من مشهد الثلج في قرطبة.

لكنَّ التاريخ لم يذكر لنا ماذا كانت مكافأة عروس الشعر لشاعرها؟!.